محمود الصبّاغ

السّعادة الزّوجيّة في الإسلام

دار الاعتصام

مكتبة السلام العالمية

السَعادة الزّوجية

في الإسلام

محمود الصباغ

السعادة الزوجية في الإسلام

مكتبة السلام العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

(الروم — ٢١)

الإهداء

إلى كل زوجين مسلمين .. يبتغيان أن يستضيئا بضوء الشريعة الإسلامية السمحاء ، فى علاقاتهما الشخصية ، ويمتعا أرواحهما وأجسامهما بالحلال الطيب من سلوك المسلمين الصالحين ، ويسهما فى بناء الأسر المسلمة التى هى دعامة الأمة وعصبها .. أهدى هذا الكتاب .. داعياً الله تبارك وتعالى أن يجعل لهما فيه نفعاً عميماً ، وأن يعيذهما من أى مسلك من مسالك الشيطان الذى لايألوا جهداً فى أن ينسج من خيوط الخير أنسجة زاهية من الشر ، لا يقع فى حبائلها إلا ضعاف العزائم والعقول .. أما عباد الله المخلصين ، فإنه ليس له عليهم سلطان كما يقول ربنا جل وعلا فى محكم تنزيله :

* « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » . (الحجر — ٤٢)

* « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » . (النحل — ٩٩)

* « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ».
(الإسراء — ٦٥)

وإننى أهيب بمن قبل منى هديتى وقرأ هذا الكتاب أن لايقصر قراءته على فصول المتعة الجسدية الحلال بين الزوجين دون سواها . . بل يبدأ بقراءة الفصول الأولى عن فقه الزواج وحكمته ، ثم يتم الفصول الأخيرة عن ثمرته فى إقامة أسرة سعيدة ، وتنشئة أبناء صالحين ، والله تعالى من وراء القصد ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

محمود الصباغ

٥/٧/١٤٠٦ هـ

* * *

مقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وصفيه من خلقه ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهدى إلى صراط مستقيم .

وبعـــد :

فإن ديننا الحنيف قد علمنا بأقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله ، وما تركه فينا من كتاب منير ، وسنة مطهرة كل شىء حتى الجنس ، والمطلع على الثقافة الإسلامية للجنس يجد أنها لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا عالجتها على أحسن ما يكون العلاج ، وأنفع .

ولا جدال أن الجنس طاقة ضخمة ، تنفع الناس ، وتثبت إيمانهم بربهم إذا هم استخدموها متبعين ما جاء به القرآن الكريم وشرحته السنة المطهرة ، والشريعة الإسلامية السمحة ، ولكن هذه الطاقة يمكن أن تكون مدمرة ، تلقى بمن يسىء استخدامها فى أتون الشقاء فى الدنيا ، وأعماق الجحيم فى الآخرة .

ولعلنا نعلم جميعاً أن أول جريمة وقعت من بنى الإنسان على سطح الأرض كانت بسبب الجنس ، حين قتل قابيل شقيقه هابيل بن آدم — عليهما السلام — ولقد كان التزام هابيل باتباع أمر الله رائعاً فيما صوره لنا

القرآن الكريم فى قوله تعالى: « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » . (المائدة — ٢٧)

فالويل لمن حكم الجنس عقله ، والخير لمن حكم الجنس بعقله ودينه ، وذلك واضح فيما يرويه القرآن الكريم على لسان هابيل موجهاً الكلام إلى أخيه قابيل إذ هم بقتله متحدياً حكم الله فى اختيار رفيقة عمره :

« إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » . (المائدة — ٢٩)

لهذا كله شعرت أن إصدار كتاب عن السعادة الزوجية فى الإسلام يوضح الزواج وحكمته ، والحياة الزوجية وقواعدها وأصولها كما بينتها شريعتنا الغراء ، وما يفعل الأزواج بأنفسهم حين يقدمون على الزواج وهم متسلحون بسلاح العلم الذى وهبه لنا ربنا فى هذا الأمر الجليل وما يفعلون فى هذه الأمانة التى يودعها الله بين أيديهم ثمرة لهذا الزواج السعيد ، أمانة الأبناء . شعرت أن إصدار مثل هذا الكتاب أمر لازم لأبنائنا وبناتنا ولرجالنا ونسائنا يفقههم فى أخص خصائصهم كما يحب ربنا ويرضى فتوكلت على الله مقدماً هذا الجهد المتواضع مؤمناً بأن إخلاص النية يغفر للعاملين فى خدمة دينهم أى عجز أو قصور .

والله أدعو أن يجعله كتاباً نافعاً ، وأن يتقبله فى الصالحات بقبول حسن إن ربى سميع مجيب .

المؤلف

« محمود الصباغ »

الفصل الأول
الـــــزواج وحكمتـــــــه

تعريف الزواج :

الزواج هو الاسم من التزوج ، وتزاوج القوم أو ازدوج القوم ، يعني تزوج بعضهم بعضاً . ومعنى الزواج أن كل واحد معه آخر من جنسه ، فيقال للاثنين : هما زوجان ، ويقال : « عندى زوجاً حمام » أى ذكر وأنثى ، والزوجة امرأة الرجل ، والزوج(١) بعلها .

ولقد جرت سنة الله على أن تكون كل مخلوقات على الأرض أزواجاً .

« ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » .
(الذاريات — ٤٩)

ولابد أن يكون لسنة الله فى التزاوج من حكمة ، كما أن هذا التزاوج لا يمكن أن يتم إلا بتدبير من الله العزيز الحكيم .

---

(١) ولفظ الزوج مما يستوى فيه المذكر والمؤنث: « ... أمسك عليك زوجك ... » كصبور وجريح وخادم ، فيقال للرجل والمرأة : زوج وللجنسين صبور ، ويقال : رجل جريح وامرأة جريح . . . إلخ .

حكمة الزواج :

الواضح أن حكمة الزواج فى الكائنات الحية سواء كانت نباتاً أو حيواناً أو إنساناً هى الاستمرار والتوسع فى الخلق ، والقرآن الكريم يوجهنا إلى هذه الحكمة فى قوله تعالى : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** » .
(النساء — ١)

ويستنكر القرآن الكريم من الذين يرون هذه الآية المعجزة أن يعودوا إلى الشرك بعد الإيمان ، لشدة دلالتها على وحدانية الخالق العظيم ، فيقول ربنا جل وعلا : « **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون . أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون** » . (الأعراف ١٨٩ — ١٩١)

فالخلق هو الدليل على الخالق واستمرار الخلق هو الدليل على ديمومة الخالق ولهذا أكد القرآن الكريم على توجيه النظر إلى خلق الله واستمرار التوسع فيه للتيقن من وجوده ، وديمومته ووحدانيته جل وعلا .

ونحن نرى هذا التأكيد واضحاً فى قوله تعالى : « **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء**

خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين » .
(الذاريات ٤٦ – ٥١)

فالقرآن الكريم يأمرنا أن نفر إلى الله وألا نجعل معه إلهاً آخر ، وينذرنا إنذاراً بيناً واضحاً من عاقبة عصيان هذا الأمر وهو يسوق لنا الدليل الواضح على وجود الله تبارك وتعالى ، بما خلق من أزواج وسموات وأرضين . وباستمرار التوسع فى عملية الخلق ونحن عليها شهود ، فنحن نرى قدرة الله على ذلك فى أنفسنا وفى غيرنا من مخلوقاته كل يوم فهو يخرج منا ومنها كل يوم أندادنا وأندادها ، دون حول منا ولا منها ولا قوة إلا قوة الله وحده ، فهل بعد الرؤية العينية من دليل ؟

« . . . يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير » .
(الشورى ٤٩ ، ٥٠)

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .
(فصلت – ٥٣)

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .
(الذاريات ٢٠ – ٢١)

ولقد صدق الله العظيم ، فقد أرانا – جل وعلا – فى هذا الزمان الذى اشتهر بالعلم الحديث آية استمرار اتساع الكون رغم أبعاده

الفلكية الهائلة ، فى كل لحظة من اللحظات بسرعة هائلة مذهلة ، حيث يشهد علماء الفلك بأن أقطار السموات تتزايد فى كل الاتجاهات بما يعادل سرعة الضوء البالغة ١٨٦,٠٠٠ ميلا فى الثانية ، وهو اتساع هائل ، يستمر بسرعة تفوق كل تصور ولا يقدر عليها إلا رب عظيم ، دائم العظمة والقدرة والوجود . ولقد لفت القرآن الكريم النظر إلى هذه الحقيقة من قبل أن يعرفها العلماء بعدة قرون وذلك فى قوله تعالى :

« والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » . (الذاريات — ٤٧)

ولم تقتصر المعجزة على هذه الآيات الكبيرة التى يخلق فيها ملايين النجوم والشموس والأرضين ، بل إن التكاثر فى الخلق أصبح مرئياً بشكل مذهل فى أصغر الكائنات الحية كالحيوانات الوحيدة الخلية والميكروبات .

فلقد أرانا الله بعد أن هدانا فى هذا الزمان الذى اشتهر بالعلم الحديث إلى المجهر ، كيف تتكاثر هذه الحيوانات البالغة الصغر ، بالانقسام ، فيتولد عن ميكروب واحد بهذه القدرة الربانية ملايين الميكروبات فى ثوان معدودة .

وليس لسائر البشر أن يحتجوا بأنهم لم يروا شيئاً من هذه الآيات التى يقتصر على رؤيتها العلماء دون العوام ، فهم يرون جميعاً عملية استمرار الخلق كل يوم فى أنفسهم وفيما حولهم من نباتات وحيوانات . إن كل البشر يشهدون كيف تعطينا البذرة الواحدة آلاف البذور فى شهور معدودة وهم يشهدون أيضاً كيف تعطينا أزواج الماشية والطيور قطعاناً وأسراباً لا يعلم حصرها إلا خالقها وهم يشهدون فى

أنفسهم كيف تبدأ الأسرة بزوجين ثم يصل عددها إلى مئات الناس في سنوات معدودة من حياتهم .

إذن فحكمة التزاوج في كل المخلوقات هي بيان أن الله حق ، وأنه لا إله إلا هو ، وهذه هي أعز الحكم وأسماها ، حيث يقول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » .

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد اختص أنبياءه ببعض الآيات التي تثبت إيمانهم فتشتد عزائمهم في إبلاغ الرسالة ، وتقوى أبدانهم على تحمل الأذى في سبيلها ، وذلك بما يريهم من آيات بالغة الدلالة على قدرته ، على النحو الذي نراه مع أبينا إبراهيم عليه السلام : **« وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم »** . (البقرة — ٢٦٠)

وعلى النحو الذي شاهده نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج **« سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير »** .
(الإسراء — ١)

فإن الله تبارك وتعالى قد جعل في حكمة استمرار الخلق الظاهرة البينة لكل الناس في أنفسهم وفي دوابهم ، وفي مزروعاتهم ، دليلا

واضحاً على قدرته وعلى وحدانيته ، وجعــل سبيله لتحقيق هذه الآية كل يوم الزواج ، فعن طريقه نرى تجدد الخلق فى الإنسان ، والحيوان والنبات دون أن يكون لأى من هذه المخلوقات جميعاً حول ولا قوة ولعلنا نلحظ صفة « العادل » من صفات الله تبارك وتعالى فى أسمائه الحسنى واضحة جلية فى هذا الأمر ، فإن أمام الناس كل الناس آية تتجدد على مرأى ومسمع منهم باستمرار ، هى عملية الخلق ، وكأنها طيور(١) أبينا إبراهيم عليه السلام تحيا كل يوم ، أو إسراء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يتجدد كل ليلة وهم حاضرون . إن هذه النظرة الصائبة إلى حكمة الزواج تدفعنا إلى التفكير فى أمره بقدسية خاصة ، تسمو بها أرواحنا ، وإن أشبعت غرائزنا ، ويتعمق بها إيمـاننا . إن رفلنا بها فى حلل السعادة والهناءة ، ويعم بها شكرنا وحمدنا لله تبارك وتعالى ذلا وخضوعاً ، وإن تضاعفت به قوتنا من كثرة ما ننجب من بنين وبنات ، وتضاعفت به ثرواتنـا من كثرة التناسل فيما نملك من دواب ونبات .

ولقد أرسل الله تبارك وتعالى الرسل لإرشادنا إلى هذه الآيات البينات بعزائم صادقة ، قادرة على أن ترينا آيات الله كما رأوها ، فنشهد له بالوحدانية ، شهادة لا نضل بعدها ولا نشقى .

إن الزوجين يشهدان فى كل لحظة ينضم إليهما فيها مولود جديد ، لا دخل لهما فى إحيائه ، ولا قدرة لهما على إنمـائه ، بل هى يد الله يرونها

---

(١) « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولـكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك . . . » . (البقرة — ٢٦٠)

رأى العين ، خلاقة رحيمة فى دارهم، فهى الإسراء الذى يتجدد ، والطيور الذبيحة التى تحيا أمام الناظرين ، وهى جديرة بأن يخر لها من يعيها ساجداً للخالق العظيم ،معترفاً بوحدانيته ، شاكراً لأنعمه اعترافاً يثبت إيمان المتقين ، وشكراً يذكر الغافلين ، ويهدى الضالين المضلين إلى أنه لا إله إلا هو الخلاق ، ذو القوة المتين .

الزواج سنة ربانية :

لو فكرنا فى تدبير الزواج ، كيف يتم ، وبحثنا وراء الأسباب التى تؤدى إلى اضطراده ، واستمراره ، رغم دعاوى تحديد النسل ، وما ينفق عليها من أموال طائلة ، لا تجدى نفعاً ولا تمنع ضرراً ، بل إنها مجلبة للكثير من الأضرار ، لوجدنا أن يد الله تبارك وتعالى واضحة فى هذا التدبير الذى لا يمكن أن يتوقف أو يرد ، بفعل الإنسان ، أو غيره من المخلوقات .

بل إن الناس والمخلوقات جميعاً مسخرون لاضطراد الزواج ، واستمراره من غير أن يكون لهم فى ذلك إرادة ، وإن ظنوا أنهم يريدون أو يفعلون .

فقد جعل الله تدبير الزواج سنة من سننه ، وضمن استمرارها بين الكائنات الحية من مخلوقاته على الأرض ، سواء كانت نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، ما دامت حكمته فى هذا الأمر قد تسامت وتعالت إلى حكمة الدعوة إلى وحدانيته ، فأصبحت للزواج رسالة كرسالات الأنبياء وتعادلت دلالته على صدق هذه الرسالة مع حجج الآيات والمعجزات .

السنة الإلهية فى تدبير الزواج للنبات :

قد يظن ظان أنه لا زواج بين النباتات ، فهى دائماً فرادى ، أو جماعات ، ثابتة فى مكانها لا تتحرك ، فكيف يمكن أن يتم بينها تزاوج ، وكل منها مثبت فى الأرض ، بجذور قد تطول أو تقصر ، ولكنها غائرة دائماً فى الأرض ، لا ينزعها منها إلا الموت والفناء .

ولكن دراسة علم النبات قد بينت أن لكل النباتات أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث ، وأن اللقاح يتم بينها بنقل حبوب اللقاح المذكرة إلى مياسم أعضاء التأنيث الموجودة فى كل زهرة من الأزهار . وبذلك يتم التزاوج بين النباتات ، وتظهر الثمار الحاملة للأجنة ، على شكل بذور ، تودع فى الأرض ليخرج منها خلقاً جديداً ، ونباتاً جميلا من نوع النباتات التى أزهرت هذه الزهرات ، وقد تم تلقيحها فأثمرت هذه المخلوقات الجديدة .

ولقد سخر الله الرياح لإحداث التزاوج بين معظم النباتات ، كما سخر بعض المخلوقات الأخرى مثل الإنسان والحشرات لإحداث هذا التزاوج ، وهى تحسب أنها تجنى ثماراً أو تحصل رزقاً .

فمن ينظر فى الآية الكريمة : « **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه . . .** » . (الحجر – ٢٢)

فى ضوء ما أثبتته كل من علم النبات وعلم الأرصاد الجوية ، يجد أن هذه الآية الكريمة تتسع إلى فهم أن الرياح تحمل حبوب اللقاح من أعضاء التذكير إلى أعضاء التأنيث فى النباتات ، كما أنها تحمل

نوى التكاثف ، فتلقح السماء(١) بالسحب ، وبذلك يثمر النبات ثمراً مباركاً ، وينزل من السماء ماء عذباً زلالا ، تحيا به الأرض فتتكاثر النباتات مع ضمان الرزق والحياة لها ولغيرها من الأحياء ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته . . . » . (الأعراف — ٥٧)

ونظراً لضخامة هذا الأداء الذى تنجزه الرياح وهى دائماً تسير بأمر ربها دون توقف ، ذكر الله تبارك وتعالى تصريف الرياح كواحدة من الآيات الدالة على وجوده ، ليستيقن الناس أنه لا إله إلا الله : « **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** » . (البقرة — ١٦٤)

وبالتصريف الرياح من آية بينة لا يحسها إلا العالمون ، فبها تحيا الأرض والأنفس والنباتات والحيوانات ، وبغيرها يموتون جميعاً وحاشا لله أن يغضب على العباد فيوقفها لحظة إلا أن تقوم الساعة ، ويأتى وعد الله الحق للناس كافة ، فإذا هم هالكون .

أما عن الحشرات المسخرة لإحداث التزاوج فى النباتات ، فلدينا النحلة التى جعل الله رزقها فى رحيق الأزهار ، وجعل فى جمال هذه

---

(١) « ألم تر الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله . . . » . (النور — ٤٣)

الأزهار وإبداعها ، قوة جاذبة ، تجذبها رغم إرادتها ، لتحصل على رزقها ، وهى لا تدرى أنها مسخرة لإحداث التزاوج بين أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث فى هذه الأزهار ، منتجة الثمار التى تحمل بداخلها أجنة كثيرة على شكل بذور ، تودع فى الأرض ، فتنبت كثيراً من نفس النوع الذى أنتج هذه الأزهار ، انظر كيف يصف الله لنا سنته فى تسخير النحل لهذا الغرض :

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » . (النحل ٦٨ — ٦٩)

فأى سبل هذه السبل التى تسلكها النحلة وهى تأكل من كل الثمرات ، لابد أن تكون سبلا عظيمة لأنها سبل رب عظيم « سبل ربك » ومع ذلك فإنها مذللة للنحله لا تكاد تشعر بها ، بل إنها تكون وهى تسلك هذه السبل فى سعادة وارفة بارتشاف الرحيق وهى تتنقل بأهدابها بين جمال الأزهار ، أليس لنا وقد درسنا علم النبات أن نفهم أن هذه السبل هى سبل نقل حبوب اللقاح من أعضاء التذكير إلى مياسم أعضاء التأنيث ويا لهذه السبل من شأن عظيم أوضحناه ونحن نشرح دور الرياح وهى تسلك نفس السبل ، فيتم اللقاح وتنتج الثمار التى تحمل بداخلها أجنة كثيرة على شكل بذور .

وقد أغنى الله من فضله الإنسان عن ضرورة التعمق فى دراسة علم النبات ليصل إلى هذه الحقائق ، فقد سخره الله لإحداث التزاوج

بيديه فى بعض النباتات كالنخيل ، حتى لا تقتصر رؤية الآيات الإلهية على العلماء ، ذلك أن الله تبارك وتعالى قد أودع فى أشجار النخيل رزقاً وجمالا ، يغريان الإنسان بالنيل منهما ، فيضطر أن يركب الصعب ، ليصعد إلى أعلى هذه الشجرة البالغة الارتفاع ، النحيلة القوام ، على ما فى ذلك من مخاطر حاملا حبوب اللقاح من ذكر النخيل ، ليضعه بيده على إناثها ، فتقوم عليه الحجة ، ويتحقق بذلك أمر الله ، تدبر معى أيها القارئ العزيز هذا التدبير الإلهى فى قوله تعالى : « **والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج** » . (ق – ١٠)

أليس لنا أن نفهم أن هذه الآية الكريمة توجهنا إلى أن نفكر فى هذا الطلع النضيد الذى جعل الله منه رزقاً للعباد ، فنحن نلقحه بأيدينا وهو لا يكاد يكون شيئاً ، فإذا به يبرز ويكبر ويحيا ويزدهر ، ويحمل من الثمر رزقاً طيباً ، فى قنوان دانية ، فنشهد أن الله قادر على أن يحيى الموتى ، ونحن نمارس هذه التجربة عملياً من غير أن يكون لنا فيها حول ولا قوة .

إن الله تبارك وتعالى يؤكد لنا هذه الرسالة الضخمة ، رسالة الإيمان واليقين بالله التى يمكن أن يلقنها لنا طلع النخيل ، فيذكره ضمن آياته للناس فى قوله تعالى : « **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** » . (الأنعام – ٩٩)

إنها دعوة صريحة من الله للإنسان أن ينظر إلى الثمار كيف تثمر ليستيقن أنه لا إله إلا الله ، وقد يسر له إدراك ذلك بتجربة محسوسة فى خروج القنوان الدانية من طلع النخيل بعد أن يقوم الإنسان بعملية اللقاح بيديه ، كما يسر له العقل والعلم الذى يهتدى بهما إلى تدبير الله فى إثمار باقى النباتات .

السنة الإلهية فى تدبير الزواج للحيوانات :

لقد أودع الله فى الحيوانات الغريزة الجنسية ، لتكون قوة دافعة ، ذات صفة بهيمية غلابة ، تدفع صاحبها منذ البلوغ إلى التزاوج مع قرين من جنسه ، يشبع معه هذه الغريزة ، أو يطفئ أوارها إلى حين .

فحاجة الأنثى لا تنقضى إلا مع قرين ، تتم معه اللذة إلى أقصاها ، ويتوجها حصادها من الذرية ذكراناً ، وإناثاً ، تقر بهم العيون ، وترضى عنهم النفوس ، وتنشرح لهم الأفئدة وتكتمل بهم السعادة .

ونحن نشهد كل يوم كيف تدافع الطيور عن صغارها ، دفاعاً قد يوردها موارد التهلكة دون تردد من فرط حبها لما أنجبت ، فنستيقن أن غريزة حب التزاوج والإنجاب فى الحيوانات تعدل عندها حب الحياة كلها أو تزيد ، فسبحان الذى أودعها تدبيراً منه لإنفاذ مشيئته باستمرار عملية الخلق على مرأى ومسمع منا جميعاً لنستيقن أنه لا إله إلا الله .

ولا يشذ الإنسان عن هذه القاعدة ، فهو يصف حبه لصغاره بأنهم أكبادنا تمشى على الأرض .

إذن فالإنسان والحيوان مسخرون رغم إرادتهم إلى استمرار التزاوج والإنجاب ، وإن ظنوا أنهم يفعلون ذلك بإرادتهم تحقيقاً للذة عارمة أو استمتاعاً بزينة غالية ، وصفها القرآن الكريم بأنها شطر هام من زينة الحياة الدنيا في قوله تعالى : « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا . . .** » . (الكهف – ٤٦)

ولقد شاهدنا في عصرنا هذا ملكاً للامبراطورية البريطانية ، حين كانت امبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، يتنازل عن هذا الملك العريض ليحقق سعادته في الحياة الزوجية مع زوجة أحبها وأحبته . وهذا يؤكد أن الشطر الذي يمثله التزاوج والإنجاب من زينة الحياة الدنيا يفوق نصف هذه الزينة بكثير ، فقد رجحت هذه الغريزة عند هذا الملك كفة التزاوج على كفة المال والجاه والسلطان مجتمعين .

هذا هو التدبير الإلهي الذي يضمن استمرار التزاوج بين الحيوانات لتقوم آية الله في استمرار الخلق – على مرأى منهم – حجة على العباد ، لا يمكن أن تبطلها حجة ، فيشهدون أن لا إله إلا الله ، وكيف بنا إذا رأينا أن التزاوج هو هدف الحياة كلها عند يعاسيب النحل(١) ، فقد علمنا أن ذكور النحل لا تعيش إلا بغرض واحد هو أن تؤدي عملية لقاح واحدة فإذا أدتها ، قضى عليها بالموت ، لأنها قد بلغت كل آمالها من الحياة ، ولم يعد لها من أمل جديد ، بعد عملية اللقاح وكأنها تعلم الإنسان أن لا حياة إلا للزواج ، ولا حياة إلا بالزواج .

---

(١) الواحد يعسوب .

وما بالنا إذا كانت اللذة الجنسية فينا لها صفة التكرار ، فهى لا تكاد تنقضى مرة حتى نشعر بالحاجة إلى تكرارها مرات . أليس ذلك كافياً لأن يجعل الله الزواج بين بنى البشر سنة من سننه لا يمكن أن تردها قوة مهما بلغت ، وهى على ما فيها من متعة متجددة تلح على الإنسان أن يقضيها متحملا كل ما للزواج من أعباء ، فإنها تقيم دائماً له آية الله فى استمرار عملية الخلق على مرأى ومشهد من الإنسان دون أن يكون له فيها حول ولا قوة ، فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وصدق الله العظيم :

« . . . وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً » . (الإسراء — ٤٤)

فإذا سلمنا أن الزواج وسيلة تتحقق عن طريقها ، حلاوة الإيمان التى تفوق فى لذتها ومتعتها كل ما فى هذه الحياة الدنيا من حلاوة ، لعلمنا أن الزواج فى الإسلام يحقق للزوجين قمة السعادة الزوجية ، فلقد قال بعض الصالحين : « لو علم أهل الدنيا ما للإيمان من حلاوة لقاتلونا عليها بالسيف » ولحق علينا أن ندرس بعناية بالغة ، كيف يمكن أن يكون زواجنا إسلامياً على النحو الذى أراده الله ، فيحقق لنا قمة السعادة فى الحياة الدنيا والنعيم المقيم فى الحياة الآخرة .

ولكن قبل أن ننتقل إلى هذه الدراسة لابد لنا أن نقف وقفة ننظر فيها إلى أحوال الأمم التى انتشرت فيها الإباحية الجنسية ، وأن نبين أثر ذلك على سعادة أفرادها وشقائهم .

* * *

الفصل الثانى

إباحة الجنس عند بعض الأمم

لا شك أننا جميعاً نشهد أو نقرأ عن انتشار الفساد والخلاعة ، والانغماس فى الرذيلة دون قيد أو خجل فى دول الغرب ، وهو لعمرى مشهد بالغ الخطورة ، على شبابنا وشاباتنا نظراً لأنه يتزامن مع مظاهر التقدم والمدنية فى هذه الدول ، فيبرر ذلك الوهم الخاطئ بالدعوة إلى تقليد هذه الدول فى هذا المشهد المفضوح ، بدعوى أنه لم يمنعها من التقدم ، بل قد يتطاول البعض ويدعى أنه سر التقدم ! ! فيصدق من لم تحنكهم الخبرة أو لم تصقلهم آداب الإسلام من الشباب والشابات ويستمرون فى التقليد الأعمى تحت ظل هذه النظريات الباطلة والدعوات الضالة ، خاصة وأننا جزء من هذا العالم الثالث ، أو الدول المسماة بالنامية ، نسعى كما يسعون جادين فى أن نجد طريقنا إلى القوة والمنعة ، والخروج مما نحن فيه من تخلف وضعف ، فيلقى إلينا السم فى الدسم . وينسى الضالون منا أننا أبناء أمة الإسلام التى ملأت الدنيا علماً ونوراً عندما تمسكت بكتاب الله وسنة رسوله ، فخرج من بيننا العلماء ، والأطباء والفيزيائيون ، وعلماء الحيوان والنبات وعلوم الأرض والفلك الذين وضعوا أسس كل هذه النهضة العلمية الحديثة التى أكسبت الإنسان من رزق الله ونعمه ، ما نشهده فى كل بقاع العالم

فى العصر الحديث من مصنوعات ومأكولات ووسائل لتوفير الراحة والسعادة فى كل مرفق من مرافق الحياة .

ونحن لا نقول ذلك مناً على البشرية ، ولا تحيزاً لهذه الأمة التى ننتمى إليها أو هذا الدين الحنيف الذى نعتنقه ، بل يقوله علماء الغرب أنفسهم ويقررونه فى كتبهم ورسائلهم العملية ، لأنه حقيقة واقعة ، لا شك فيها ولا مراء .

إن كل همنا هو أن نقدم للقارئ العزيز الدليل المحسوس على أن سر التقدم العلمى وأصله إنما يرجع إلى الالتزام بأحكام الدين الحنيف فهى كفيلة بأن تطهر المجتمعات ، وتزكى النفوس ، وتشحذ العقول ، وتبعث الهمم مع صدق التوكل على الله ، الملهم لكل علم ونور ، أما ما أصاب دول الغرب من انحلال وفساد وشذوذ ، فإنما هو نتيجة الكفر بنعم الله التى أنعم بها عليهم عندما نقلوا عن المسلمين أصول مدنيتهم ، وطبقوها ، فانتقل إليهم العلم والتقدم الذى أسسه المسلمون وسادوا العالم به زهاء خمسة قرون متصلة — فالعلم مشاع بين الجميع ولمن يأخذ بأسبابه ، وها هم قد آذنت دولتهم بالزوال عندما غمرتهم النعم ، وأعمتهم الرفاهية فنسوا الله واتجهوا إلى المادة يعبدونها وإلى الغريزة ، يذكون أوراها ظانين أنهم يحققون لأنفسهم مزيداً من المتعة والسعادة بينما هم فى الحقيقة يتردون فى مهاوى الشقاء والانهيار ، والذل والانكسار ، ونحن نشهد ما يتردون فيه من حروب عالمية مهلكة ، وتعال وفساد وإفساد مدمر ، فأصبحوا وعلى قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وصدق الله العظيم :

« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً » . (الكهف — ٥٧)

ولقد نبهنا القرآن الكريم إلى أن حال من يعرضون عن ذكر ربهم ، وقد ذكروا بآياته لا تقف عند حد التخلف العقلى لا عن مرض عقلى ولكن عن سنة ربانية ، وإرادة علوية ظاهرة فى : « إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً » .

بل إن حالهم سيكون أدهى وأمر من ذلك على ما فيه من مرارة وضياع . انظر يا أخى إلى قول الله تبارك وتعالى : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » .
(السجدة — ٢٢)

واعلم أن حال المسلمين اليوم هو نتيجة لإعراضهم عما ذكروا به من آيات الله وأنه مصداق لقول ربهم الذى أنذروا به ، فكأن على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ،وكأنهم إذا لم ينتبهوا ويعودوا إلى الله فسيلتكس هذا الحال ويحق عليهم قوله تعالى : « . . . إنا من المجرمين منتقمون » والعياذ بالله ، وإنى أخشى أن أقول : إن بوادر هذا الانتقام قد بدأت فى الظهور بما نشهده اليوم من مآس تتفتت لها الأكباد فى فلسطين ولبنان والعراق وإيران وأفغانستان وإريتريا ،وما إلى ذلك من المفاجع التى لا يحصيها عد .

واعلم أن سبيل الخروج من هذه المذلة وهذا الضياع هو تذكر آيات الله والالتزام بها وليس تقليد دول الغرب فى أخطر أمراضها على ما هى فيه اليوم من تقدم ومدنية ، وهو إباحة الجنس وانتشار الخلاعة والانغماس فى الرذيلة ، فإن علماء الغرب أنفسهم ينذرون قومهم بأوخم العواقب إذا لم يكفوا عن هذا الانحلال الخطير .

يقول الأستاذ « بيتيرم سادوكين » مدير الأبحاث بجامعة هارفارد فى كتاب له صدر أخيراً بعنوان (الثورة الجنسية) : « إن أمريكا سائرة بسرعة إلى كارثة الفوضوية الجنسية ، وهى متجهة إلى نفس الاتجاه الذى أدى إلى سقوط الإمبراطورية الإغريقية ثم الإمبراطورية الرومانية فى الزمان القديم » ، ويقول : « إننا محاصرون من جميع الجهات بتيار مطرد من الجنس ، يغرق كل غرفة من بناء ثقافتنا وكل قطاع من حياتنا » .

كما يقول الصحفيان الأمريكيان « جال ليب ولى موريتسر » فى رسالتهما (أمريكا دولة تحكمها العصابات) : « وقد كان جراء هذه الحرية المطلقة التى نالتها المرأة أن نشأت عدة صعوبات اقتصادية واجتماعية ، أبرزها وأشدها خطراً ، هو إعراض الرجل الأمريكى عن الزواج ، لا سيما من الفتيات اللواتى يدعين التحرر والانطلاق مع أهوائهن ، لأنهن فى نظره غير صالحات لتكوين أسرة وتربية أطفال

هذا هو تشخيص علماء الغرب ومفكريه لحالة إباحة الجنس وانتشار الخلاعة والانغماس فى الرذيلة فى بلادهم . وهذا هو تشخيص القرآن الكريم لما نحن فيه من أكنة على قلوبنا ووقر فى آذاننا فلا نسمع الهدى

ولا نرى النور ، بل نستحسن هذا الداء الوبيل الذى يشكو منه أصحابه ونزينه لنفوسنا ونحسبه سبيل التقدم والمدنية والرخاء ! !

فأى عته وأى جنون هذا الذى نوشك أن نقع فيه فنخسر البقية الباقية لنا من سعادة وهناءة ونتعرض إلى الانتقام الشديد من لدن الحكيم الخبير ، أو لا نرى أو نسمع بأن أعلى نسبة سجلتها الإحصائيات لحالات الانتحار فى العالم هى فى بلاد السويد التى تميزت بتمام الانحلال الجنسى فلم يعد هناك عليه حظر أو لوم .

وهل يمكن أن يقدم على الانتحار إلا الأشقياء التعساء ، وهم يحسبون أنهم فى سعادة وهناءة :

« الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ».
(الكهف — ١٠٤)

« . . . خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » .
(الحج — ١١)

* * *

الفصل الثالث

الزواج الإسلامى

قدر الإنسان في الإسلام :

لقد جعل الله الزواج على شريعة الإسلام تكريماً للناس ، وتعظيما يتناسب مع القدر الرفيع الذى وضع الإسلام الجنس البشرى فيه بين سائر المخلوقات ؛

فنحن إذا نظرنا إلى سائر الحيوانات التى تدب على الأرض ، لوجدنا أن الإنسان متميز ومتفرد عنها جميعاً ، بنعمة العقل ، المكلف بتعمير الأرض ، فى ظل لا إله إلا الله . وقد سخر الله تبارك وتعالى للإنسان فى سبيل تحقيق هذا التكليف كل ما فى الكون ، من نجوم وشموس ، وأرضين ، وأقمار ، وما بينها من أجواء ، بما حملت من أبخرة وغازات ، وسحب وماء ، وذلك هو ما يرشدنا إليه القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى : **« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .** (لقمان — ٢٠)

تمعن يا أخى كيف يجعل الله النظر فيما سخر للناس من مخلوقاته وما أسبغه عليهم فى نعمة ظاهرة وباطنة أساساً للإيمان به ، ويمنعهم عن الجدل فى الله ، قبل الاستنارة بالعلم أو بالكتاب المنير وكلاهما

جدير بأن يهدى كل ذى عقل سليم وفكر رشيد وصدق الله العظيم :
«... **إنما يخشى الله من عباده العلماء ...**» . (فاطر — ٢٨)

ولم يكتف القرآن الكريم ، فى بيان ما سخره الله للناس ، إجمالا كما هو واضح فى الآية السابقة (لقمان — ٢٠) ، وإنما فصل ذلك تفصيلا فى العديد من الآيات ، لتكون حجة على الناس ، إذا هم لم يرعوا نعم الله عليهم ، حيث آتاهم فى الدنيا هذا الملك العريض :

« **الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** » . (إبراهيم ٣٢ — ٣٤)

يذكرنا الحق تبارك وتعالى بالفلك التى تجرى فى البحر على صغرها جنباً إلى جنب مع الشمس والقمر والليل والنهار على كبرها ، ثم يترك لنا أن نعد كل صغير وكبير مما سخره لنا بين هذين الحدين أو دونهما أو أكبر منهما فلا نستطيع أن نحصى نعمه ، ذلك لنتبين بعد محاولة الإحصاء (١) ، كم هو جاحد وضال ذلك الذى يكفر هذه النعم المادية التى لا يعدها حصر ، المهداة إليه من لدن خالق عزيز خبير . غنى عن العالمين .

---

(١) وإن كان لم يقدم واحد من البشر — على تقدم علوم الإحصاء وأدواته — أن يحصى نعم الله — ولن ...

فإذا تركنا النعم المادية جانباً ، ونظرنا فى النعم الأدبية التى من الله بها على الإنسان لوجدنا أمراً عجباً ، لوجدنا أن الله تبارك وتعالى قد كرم بنى آدم وفضله على كثير ممن خلق إذا هو ثبت عند قول : لا إله إلا الله بالعلم البين والحجة الواضحة :

بسم الله الرحمن الرحيم « **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** » .

(البقرة ٣٠ — ٣٥)

وهل يمكن أن يكون لمخلوق تكريم أعظم وأجل من أن يكون خليفة الله فى الأرض ؟ وهل يمكن أن يكون لمخلوق علم أكبر وأوفى من أن يتعلم الأسماء كلها ؟

وهل يمكن أن يكون لمخلوق مكانة أعلى وأسمى من أن تسجد له الملائكة ؟

وهل يمكن أن يكون لمخلوق عيش أرغد وأهنأ من أن يعيش في الجنة ؟

وصدق الله العظيم : « **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » .
(الأسراء — ٧٠)

ما السر في هذا التكريم والتعظيم والجاه العريض ، الذى خصصه الله تبارك وتعالى لهذا الإنسان على الرغم من أنه مجرد واحد من هذه الحيوانات الكثيرة التي تدب على الأرض وهو يشترك معها في السعي لقضاء شهوتى الفم والفرج ، بل إن كثيراً من الناس لينزلون إلى درجات أدنى من درجات الحيوان ، فهم يردون على نعم الله عليهم بالفساد في الأرض وسفك الدماء بغير حق ، وهو أمر معلوم للخالق تبارك وتعالى من قبل أن يخلق الإنسان ، وقد علمه للملائكة ، عندما أعلن عليهم مشيئته بوضع الإنسان في هذه الدرجة الرفيعة ، وآية ذلك أن الله تبارك وتعالى يصف هذا الصنف من الناس بأنهم كالأنعام بل هم أضل في قوله تعالى : « ... **أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** » . (الأعراف — ١٧٩)

وكأنى أرى بنور الله أن سر هذا التكريم هو فضل البقية الصالحة التي تثبت عند لا إله إلا الله سوف يطهر كل هذا الرجس الذى يقع فيه المفسدون ، فيصبح وكأنه قطرة نجسة ، لا أثر لها ولا اعتبار في بحور الطهر والجلال ، ويبقى الجنس البشرى جديراً بما منحه الله من تكريم وتعظيم وجاه عريض .

حتمية دعوة الإنسان ليحفظ قدره :

إن هذا القدر العظيم والمكانة الرفيعة التى ميز الله تبارك وتعالى بها الإنسان رغم ما فيه من غريزة بهيمية ، لا بد وأن يقابلها دعوة إلى الترفع عن هذه الغريزة ، وقبول لهذه الدعوة ، وإلا انحط قدر الإنسان وأصبح غير أهل لهذه الدرجة ، بل إنه ليهوى إلى مراتب الحيوانات العجماوات أو إلى ما هو أدنى من ذلك .

بسم الله الرحمن الرحيم : « **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** » . (الأعراف ١٧٥ – ١٧٦)

ياله من عدل ونور ، فلا حجة على الناس قبل أن تأتيهم الآيات ، فإذا جاءتهم الآيات بينة واضحة ، وكان الإيمان بها قميناً أن يرفعهم إلى أعلى الدرجات كان منهم من يخلد إلى الأرض ، وينسلخ من هذه الآيات ويتبع الشيطان فيخضع لهواه ، ولا يرعى منزلته وكرامته حينئذ يستحق أن يشبه بالكلب الضال الذى إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

ويا لهذا التشبيه من بلاغة ، فنحن نرى الصفات فى المشبه به أقل وضوحاً منها فى المشبه ذلك أن ضلال الكلب أمر طبيعى لحرمانه من نعمتى العقل والعلم ، أما ضلال الإنسان وقد أوتى العقل والعلم والآيات البينات (عيب أكبر ووزر أخطر) .

وأين مثل الكلب الذى إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، من مثل خليفة الله في الأرض الذى تسجد له الملائكة ؟

هوة شاسعة لابد لمن يرتفع إلى قمتها أن يثبت على الحق وأن يغلب الهوى ويصرع الظلم ، أمّا من ضل واتبع الهوى ، وأمعن فى الضلال فلابد — عدلا — أن تخسف به الأرض أو أن ينزل إلى قاع سحيق .

إن من أعمل عقله الذى ميزه الله به عن الحيوان كان أهلا للإعزاز والتكريم ، وإن الدليل الساطع على إعمال العقل هو الاعتراف لله بالألوهية والوحدانية ، والشكر له على نعمه الظاهرة والباطنة ، ولا يكون هذا الاعتراف قولا باللسان فقط ، بل لابد أن يصدقه العمل.

بالامتثال إلى أوامر الله والانتهاء عن نواهيه ،أما من غاب عنه عقله وكفر بنعمة ربه ، واستمرأ العصيان لأوامره ، فهو أحرى بالنزول إلى المراتب الدنيا بين خلق الله من الدواب والحيوانات .

« . . . اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور » .

(سبأ — ١٣)

إن البهائم لا تعصى ربها ولكنها تسلك سبله ذللا ، كما هيأها سبحانه وتعالى ، ومن ثم كان من العدل أن يرتفع قدرها عن هذا الصنف من البشر الذى هيأه الله ليرتفع ويرتقى ، ولكنه يخلد إلى الأرض ، ويضل الطريق إلى جنات عرضها السموات والأرض ثمارها أبهى من كل ما رأت عين ، أو سمعت أذن أو خطر على قلب بشر .

لابد أن يثبت الإنسان أنه جدير بهذه الجنات ، فيجتاز الاختبار

الذى وضعه الله فيه ليميزه عن سائر خلقه ، فى الدنيا والآخرة خاصة أنه اختبار يسير لأنه لا يكلف الإنسان إلا بما تقتضيه كرامته وعزته .

فنحن نرى أن إشباع الغريزة الجنسية لدى الحيوان فطرية لا قيد عليها ولا حساب ، فلكل حيوان أن يقضى حاجته مع القرين الذى يرتضيه ، دون قيود أو شروط إلا إرضاء هذا القرين ، فلاخطبة ولا أهل ، ولا مهر ، ولا كسوة ، ولا نفقة ، ولا التزام بعقد شرعى فكل ذلك مرفوع عن الحيوانات ، ولكنه واجب على الإنسان تكريماً له وإعزازاً ، فالإنسان مميز عن الحيوان بحفظ النسب ، وصلة الرحم وذلك واضح فى قوله تعالى : **« وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً »** . (الفرقان — ٥٤)

ومن ثم كان اعتزاز الإنسان بأسرته وحسبه وأصله ونسبه من المكرمات التى تميز بها عن سائر الحيوان الذى تقف حدود قضاء شهوته الجنسية عند هدف التكاثر ، فتنقطع به الصلة عن قرينه فور قضاء وطره .

كما أن فى تخصيص قرينة للإنسان ، وحفظها من أن تكون مشاعاً بين الناس إعزازٌ وتكريمٌ للإنسان بميزة عن سائر الحيوان ، وهو يستحق هذا التخصيص بما يلتزم به من نفقة يسرها الله له فى الرزق ، وما يعتز به من عرض يدافع عنه بالمهج والأرواح .

ذلك أن فى انفراد الإنسان بالمحافظة على نسبه إعزاز وتكريم ، فالبنون هم زينة الحياة الدنيا التى يتمتع بها الإنسان فى شبابه : **« المال والبنون زينة الحياة الدنيا . . . »** . (الكهف — ٤٦)

والرعاية والإجلال هما حقه الذى أوجبه الله له على بنيه إذا مسه الكبر ، ولم يوجبه لغيره من الدواب وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى: **« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .** (الإسراء ٢٣ – ٢٤)

إن ورقة الإمتحان الأولى التى لابد أن يجتازها الإنسان هى التزامه بهذا النظام الخاص فى قضاء غريزته الجنسية . وقد رأينا أن الهدف من هذا النظام هو تميز الإنسان وتكريمه عن سائر الدواب ، فهل يقبل من عاقل أن يرفض التكريم ويصمم على الانحدار إلى أدنى الدرجات ؟

إن الحل الناجح لهذه الورقة هو الزواج ، بدءاً بالخطبة ، ثم العقد، ثم الحياة الزوجية ، مع استمرار صلة الرحم ، وتقوى الله فى أموال الناس وأعراضهم .

ولكى نيسر للقارئ طريق النجاح بامتياز فى هذا الامتحان من أوراق الامتحان سنفصل له هذا النظام الحكيم المنزل من لدن عليم خبير فى الفصول القادمة من هذا الكتاب بإذن الله .

* * *

الفصـــــل الرابـــــع

الخطبـــــة

حتمية الخطبة :

إذا ما بلغ الإنسان الحلم ، حركته رغبته الجنسية فى البحث عن قرين ، يقضى منه وطره وكان ذلك هو أول ما يتعرض له الإنسان من مساءلة ، حيث لا مساءلة للإنسان عما يفعل قبل بلوغه الحلم ، وإن كان لابد من التوجيه حتى يشب على الفضيلة(١) .

ومن الناس من لم يدخل نور الإسلام قلبه ، فلم ير فارقاً بينه وبين الحيوان فى قضاء غريزته ، فيسعى إلى الأنثى ، يريد أن يوقعها فى حبائله ، حتى يقضى منها وطره ، ثم يدعها كما يدع الحيوان قرينته ليقضى مع حيوان آخر وطره دون أن يتولد عن ذلك إحساس بغيرة وشعور بحب ، أو رابطة برحم ، فالهدف بهيمى ، ومن ثم فإنه يتحقق كما تحققه البهائم .

ومن عجب أننا صرنا نشهد فى المجتمعات التى طغت فيها المادة

---

(١) ورد فى السنة الشريفة : « داعب ولدك سبعاً وأدبه سبعاً وعلمه سبعاً ثم اترك حبله على غاربه » أو كما قال : وورد : « مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » . إنها روعة الأدب الاسلامى .

على الروح ، وتحول الإنسان إلى عبد لشهوته ، لا يرى لله أثراً فى حياته ، قد عميت بصيرته ، وانطفأ نور قلبه وبصره ، يعتمد هذا السبيل فى قضاء غريزته دون وجل أو حياء على مرأى ومشهد من سائر الحيوانات البشرية التى حوله ، من أمثاله وأقرانه، فى النوادى ، والحدائق العامة والشوارع ، والطرقات ، رغم انتسابه إلى مدنية زائفة ودعاوى باطلة بالعلم والتقدم :

« الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »
(الكهف – ١٠٤)

أعاذنا الله من شر تقليد هذه المجتمعات وجنب الله أمة الإسلام التردى فى مهاوى الرذيلة .

ومن عجب أيضاً أننا نجد من بعض أبناء جلدتنا الذين انبهرت عيونهم ، بمظاهر الخلاعة والمجون فى هذه المجتمعات ، فعميت بصائرهم وظنوا أن هذا هو التقدم والعلم ، فقلدوه ، ودعوا إلى تعميمه فى بلاد الهداية والإسلام ، وكأنهم لا يسمعون بآذانهم قرآناً يتلى صباح مساء ، ولا يشهدون بعيونهم مساجد يذكر فيها اسم الله من حولهم ، ويعبد .

والأكثر عجباً أننا نرى من هؤلاء الضالين ، بعد أن يمكنهم الله من مواقع القيادة فى بلاد الإسلام ، من ينسى فضل ربه ، فيمعن فى إلزام المسلمين باتباع هذا الطريق الضال ، ويوقع أشد العذاب والتنكيل بمن يريد الثبات على الطريق المستقيم ، ويدعو إلى الهداية والنور ، بينما يجد اللصوص الأفاقين ، وأهل الدعارة الفاجرين ، فى ظل حكمهم

كل مظاهر الاحترام والتبجيل !! فيضعونهم فى مواقع الصدارة ، ليغروا قومهم بالكذب والتضليل ، ثم يستغلون ذلك كله فى قضاء غرائزهم البهيمية فى الجنس والمال دون وجل ، أو خوف من عقاب . ولقد شاهدنا وسمعنا وزراء ورؤساء محاكم ثورية فى مصر العزيزة التى هى معقل من معاقل الإسلام منذ سيدنا إبراهيم عليه السلام ، تتبادلون الاعتراف علنا ، فى قاعة المحكمة بما اقتنوا من دور خاصة لدعارتهم وما اغتصبوا من أموال أنفقوها فى الفساد ، وأطلقوا عليها اسم الأموال الاستراتيجية ذراً للرماد فى العيون . ولم يمنعهم من ذلك علمهم بأن الشعب لم ينصبهم قادة لمصر إلا على أساس مبادئهم الستة المعلنة منهم بدءاً بتحرير مصر من المحتل ومحاربة الفساد والطغيان وانتهاء بإقامة حياة ديموقراطية فيها .

إذن فقد كانوا على بينة ووعى كاملين بالفساد والطغيان ، ولكنهم أتوهما دون خجل أو حياء كأشد ما يكونان ، دناءة ، وفجر وإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ومن أعجب العجب أننا صرنا نشهد شذوذاً فى بعض هؤلاء الضالين ، ينزل بهم عن مرتبة الحيوان .. فنحن لم نشهد أبداً حيواناً يغتصب قرينته ، اغتصاباً رغم إرادتها ، ولكن لابد لذكر الحيوان قبل أن يقضى وطره من أنثاه أن يداعبها حتى يكتسب رضاها ، ولكننا نسمع ونقرأ عن أناس انحطوا عن درجة الحيوان فاغتصبوا النساء رغم إرادتهن ، بل ونسمع ونقرأ عن أناس يباشرون الموتى !! ونحن لم نشهد أبداً حيواناً ذكراً يمارس مع حيوان ذكر ، ولا أنثى

من إناث الحيوان تمارس مع أنثى من جنسها ، ولكننا نسمع ونقرأ عن هذا الانحطاط فى بعض الناس الذين يصدق فيها قول الله تبارك وتعالى : « . . . **أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** » .
(الأعراف – ١٧٩)

فكيف بنا ، ونحن نرى العمى يصل إلى قلوب القادة من دول المدنية العلمانية ، فيسنون القوانين التى تبيح هذا الشذوذ الجنسى الذى يهبط بالإنسان إلى أدنى من درجة الحيوان ؟ كيف بنا ونحن نرى الإنسانية جمعاء على حافة الهاوية ، تكاد تقع فى ضلال مبين ، إذا ما عمت هذه الضلالة البلاد والعباد ... باسم الحرية والمدنية .. والعياذ بالله ؟

ولننظر هل يحقق هذا الفساد السعادة(١) لهؤلاء الناس ، لنجد لهم عذراً ، فى إلغاء عقولهم والانحطاط بأنفسهم إلى مستوى البهائم فما دون ، وليكن نظرنا هذا فى أكثر الأمم إباحة للجنس ، وأيسرها بسطة فى الرزق ، وهما جناحا السعادة المادية فى هذه الحياة الدنيا لنرى أن أعلى نسبة للأمراض العقلية والنفسية والعصبية فى العالم تقع فى هذه الدولة دون منازع ، فأين هذه السعادة ؟ إن هذا الذى نراه هو دليل التعاسة والشقاء .. إن الواقع يقول : إن هذا السلوك اللا إسلامى هو الطريق

---

(١) حتى ولو كانت سعادة فبئست هى لأنها آثمة : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » حديث شريف .

الطبيعى للانحطاط والشقاء ، والوقوع فى هاوية الأمراض العقلية والنفسية ، بل والانتحار كما أسلفنا .

ولكننا نجد الإسلام يفرض الخطبة من الولى الشرعى قبل أن يمس الخطيب خطيبته ، فالخطبة إقدام على مشهد راق عظيم ، وهو مشهد بناء أسرة مسلمة ، ترى آيات الله فى دارها فتنعم وتسعد بما ترى ، سعادة لا يكتنفها شقاء .

حكمة الخطبة :

إن الخطبة إقدام على جمع شماين ، ليتكون منهما خلق واحد متكامل : « **وخلقناكم أزواجاً** » . (النبأ – ٨)

« . . . **وبث منهما رجالا كثيرة ونساء . . .** » . (النساء – ١)

أى أن الخطبة هى إقدام على بناء خلق واحد متكامل من لبنتين هما الذكر والأنثى ولا بد لكل بناء من دراسة وحساب وتخطيط وتصميم ضماناً لسلامة البناء ، فلا توضع لبنة صلبة على لبنة هشة ، فينهار البناء ، ولا يجدى نفعاً ، فما بالنا بمثل هذا البناء المقدس ؟ بناء الإنسان الكامل بالزواج .

لا بد لنا أولا أن نبحث عن المهندس الذى يصمم هذا البناء : هل هو الغريزة الجنسية وحدها كما هو الحال فى الحيوان ؟ يشعر الرجل برغبة حيوانية ، حين يرى امرأة جميلة يميل إليها جنسياً ، فيقرر الزواج منها دون تأن أو روية .

كلا فليست الغاية من الزواج عند البشر مجرد أن يقضى الرجل

وطره ، ثم ينتهى كل شيء . إن الغاية من الزواج هى بناء أسرة تستمر الصلة بين أرحامها ما دامت على الأرض حياة : « **وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً** » .

(الفرقان — ٥٤)

ومن ثم كان لزاماً على الإنسان قبل أن يقدم على الزواج أن يتخير من تصلح أن تكون قرينة له مدى الحياة ، فيصبح أهلها أهله ، وولدها ولده حتى يستقيم البناء الذى يقدم عليه . وفى هذا يوصينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ، كما أسلفنا .

وكذلك الأمر بالنسبة لولى الزوجة الشرعى ، فإن عليه قبل أن يقبل زواج وليته بمن يتقدم إليها أن لا يغتر بجمال طلعته ، أو وفرة ماله ، أو قوة بنيته ، بل لابد له من تأن وروية يطمئن بها إلى أن هذا الرجل يصلح أن يكون زوجاً وأباً لأولاد وليته ، وأن أهله يصلحون أن يكونوا أهلا لها ، فالولد يكتسب الصفات والطباع من النطفتين مجتمعتين لا من نطفة الأم وحدها أو الأب وحده ، ومن ثم كان الاختيار فى الأب مهماً كأهمية الاختيار فى الأم . من هذا تتضح الحكمة البالغة للخطبة فهى إتاحة الفرصة لكل من الطرفين أن يقوم بالدراسة المتأنية لأخلاق وعادات وإمكانيات الطرف الآخر حتى يطمئن الطرفان إلى أن الزواج المترتب على هذه الخطبة ، قد تهيأت له أسباب التوفيق والاستقرار ، وأن البيت الجديد الذى أوشك أن يرتفع بناؤه سيكون مرتعاً لذرية صالحة هانئة بإذن الله .

الأسس الصحيحة لاختيار الزوج والزوجة :

لقد وضع الإسلام الأسس الصحيحة لاختيار الزوج أو الزوجة فجعل القرآن الكريم التقوى مقياساً للأساس المتين الذى لا يعد له مقياس آخر :

« . . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . . » . (الحجرات — ١٣)

« وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » . (النور — ٣٢)

ولقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » . (رواه الترمذى وصححه)

كما بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتفصيل كيف يتم اختيار الزوجة الصالحة فقال صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك » . (رواه البخارى ومسلم)

وقد قال رجل للحسن بن على : « إن لى بنتاً فمن ترى أن أزوجها ؟ قال : زوجها لمن يتقى الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها » .

ومعنى ذلك أن الأساس الأول الذى وضعه الإسلام لقبول — يد الزوج أو طلب يد الزوجة هو النظر فى دين صاحب الطلب ، فإن كان صالحاً ، أو كانت صالحة ، فقد صلح الأساس وبقى النظر فى

الأموال والأحساب والجمال . أما إذا لم يصلح الدين، فلا كانت خطبة ولا كان زواج .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها » رواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس ورواه فى الثقات من قول الشعبى بإسناد صحيح .

قال ابن تيمية : « ومن كان مصراً على الفسوق ، لا ينبغى أن يزوج » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تزوج امرأة لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوج امرأة لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة ليغض بها بصره ، ويحصن فرجه، أو يصل رحمه بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه » (رواه ابن حبان)

ومعنى ذلك كله أن القصد الأول من الخطبة ينبغى أن يرتفع إلى النظر فى القيم الإنسانية والروحية والدينية عند الشروع فى بناء الأسرة المسلمة ، ولا يصح الانخفاض فيه بالنظر إلى الغايات الدنيا ، لأنها لا ترفع صاحبها ولا تسمو به سواء كانت مالا أو جمالا أو حسباً أو نسباً

وهذا لا ينفى أن تجتمع كل الغايات :

فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا

وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن .

قيل : يارسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء » رواه الدارقطنى(*).

أى أنه ينبغى أن يتوفر فى المرأة المخطوبة أن تكون من بيئة كريمة معروفة باعتدال المزاج ، وهدوء الأعصاب ، والبعد عن الانحرافات النفسية ، كما يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الاختيار للزواج فيقول : « لا تزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن ، فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ولأمة خرماء ذات دين أفضل » رواه عبد بن حميد ،والخرماء هى المشقوفة الأنف والأذن .

ولما كان إنجاب الأولاد من المقاصد الأولى للزواج ، فينبغى عند اختيار الزوجين الاطمئنان إلى سلامة بدنهما ، وقدرتهما على الإنجاب لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » . ويستحسن أن تكون الزوجة بكراً لم يسبق لها عهد بالرجال ، فيكون حبها لزوجها ألصق بقلبها ، فما الحب إلا للحبيب الأول إذا دام حبه بالعدل والإحسان وبتوفيق من الله فى حسن الاختيار .

ومما ينبغى ملاحظته عند الاختيار أن يكون هناك تقارب بين الزوجين من حيث السن والمركز الاجتماعى ، والمستوى الثقافى ،

(*) ذكره الشيخ الألبانى فى الضعاف .

والاقتصادى فإن التقارب فى هذه النواحى ، مما يعين على دوام العشرة وبقاء الألفة .

فقد خطب أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إنها صغيرة » ، فلما خطبها على رضى الله عنه زوجها إياه .

هذه هى نماذج الأسس التى أرشد إليها الإسلام ليتخذها مريدو الزواج عند الخطبة نبراساً يستضيئون به ، ويسيرون على هداه ، فإن فعلوا كانت بيوتهم جنات ، ينعم بها الصغار ويسعد بها الكبار ، وأصبحت مصانع للأبناء الصالحين الذين تحيا بهم أممهم حياة طيبة كريمة.

إجراءات الخطبة :

ينبغى لراغبى الزواج قبل البدء فى إجراءات الخطبة أن يتحققوا من عدم وجود موانع شرعية تمنع من الزواج فى الحال ، كأن تكون محرمة عليه بسبب من أسباب التحريم المؤبدة أو المؤقتة ، أو أن يكون غيره قد سبقه إلى خطبتها ، فقد حرم الإسلام على الرجل أن يخطب على خطبة أخيه لما فى ذلك من اعتداء على حق الخاطب الأول وإساءة إليه ، وقد ينجم عن هذا القصر الشقاق بين الأسر ، والاعتداء الذى يروع الآمنين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن أخو المؤمن ، فلا يحل له أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر » .
(رواه أحمد ومسلم)

أما إذا لم تقبل خطبة الخطيب الأول أو أن يكون قد أذن للثانى أن يخطب بدلا منه فتجوز الخطبة ويجوز معها الإجراءات الآتية إذا صح الأساس فى ثقة كل من الطرفين فى دين الآخر وصلاحه ، وعدم وجود الموانع الشرعية ، وهما شرطان أساسيان للبدء فى الخطبة ، فإن غاب أحدهما لا كانت خطبة ولا كان زواج .

الإجراء الأول : التعرف على الجمال :

ندب الشرع الرجل أن ينظر إلى خطيبته ، وللمرأة أن تنظر إلى خاطبها قبل إعلان القبول بالخطبة ، فالإنسان بطبيعته يعشق الجمال ويهواه ، ويشعر دائماً فى قرارة نفسه بالسكن والسعادة والارتواء العاطفى كلما أحرز شيئاً جميلا ، واستولى عليه ، ولهذا السبب كان للجمال اعتبار هام عند اختيار الأزواج ، فقد ورد فى الحديث الصحيح : « إن الله جميل يحب الجمال » .

وقد خطب المغيرة بن شعبة امرأة فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « اذهب فانظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى تدوم بينكما المودة والعشرة .

كما نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا خطب امرأة من الأنصار وقال له : « انظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً » . قيل : صغر أو عمش .

وليس هذا الحق مقصوراً على الرجل ، بل هو ثابت للمرأة أيضاً فلها أن تنظر إلى خاطبها فإنه يعجبها منه مثل ما يعجبه منها .

قال عمر رضى الله عنه : « لا تزوجوا بناتكم من الرجل اللميم ، فإنه يعجبهن منهم ما يعجبهم منهن » .

وقد ذهب الجمهور من العلماء إلى أن الرجل ينظر إلى الوجه ، والكفين لا غير لأنه يستدل بالنظر إلى الوجه على الجمال أو الدمامة وإلى الكفين على خصوبة البدن أو عدمها .

وقال داود : ينظر إلى جميع البدن .

وقال الأوزاعى : ينظر إلى مواضع اللحم .

ولكن لم يرد الشرع بغير السماح بالنظر لمن يخطب ، فلا تجوز الخلوة بالمخطوبة لأنها محرمة على الخاطب حتى يعقد عليها ، فإن وجد محرم جازت الخلوة لامتناع وقوع المعصية .

فعن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم منها ، فإن ثالثهما شيطان » .

وعن عامر بن ربيعة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له ، فإن ثالثهما شيطان إلا محرم .

والدليل على صحة النظر إلى يدى الخطيبة ما رواه عبد الرازق وسعيد بن منصور : « أن عمر خطب إلى على ابنته أم كلثوم ، فذكر له صغرها ، فقال : أبعث بها إليك فإن رضيت بها فهى امرأتك ، فأرسل إليها فكشف عن ساقها ، فقالت : لولا أنك أمير المؤمنين لصككت عينيك » .

وقد أباح الشرع لمن أراد الخطبة بالنظر إلى الطرف الآخر دون أن يشعر أو أن يأذن له .

فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » .

قال جابر : « فخطبت امرأة من بنى سلمة ، فكنت أختبئ لها حتى رأيت منها بعض ما دعانى إليها » . (رواه أبو داود)

وفى ذلك الدليل على أنه ينظر إليها فى غفلتها وإن لم تأذن له وإذا كان هذا حق للرجل فهو حق أيضاً للمرأة ما دام القصد هو الزواج . أما الذهاب إلى السينما بقصد التعارف أو الخلوة بدون المحارم وما يحدث فى الأوساط الاجتماعية اليوم فهو ممنوع شرعاً .

ومن آداب الخطبة أن يسكت الإنسان عما لا يعجبه فى الآخر حتى لا يتأذى بما يذكر عنه ولعل الذى لا يعجبه من الآخر يعجب غيره .

من هذا الإجراء الذى أباحه الإسلام ، نرى الحرص على تحقيق السعادة الزوجية وضمان الاستقرار والاطمئنان فيها ، فإن رؤية الخاطب لمخطوبته ورضى كل من الطرفين على الآخر هو أحرى بأن تدوم العشرة بينهما كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

كما يتضح لنا أن ما جرت عليه عادة بعض الأسر الجامدة بعدم السماح للخاطب أن يرى بناتها عند الخطبة ، فتأبى إلا أن يعقد عليها دون

أن يراها إلا ليلة الزفاف هو أمر مخالف للسنة المطهرة ، فقد تكون الرؤية مفاجئة لها غير متوقعة ، فيحدث الشقاق والفراق .

كما أن الاكتفاء بعرض الصورة الشمسية لا يدل على شيء يمكن معه الاطمئنان إلى الرضى عن الزواج أو تصور الحقيقة تصوراً دقيقاً .

وخير الأمور هو ما جاء به الإسلام فإن فيه الرعاية لحق كل من الزوجين في رؤية كل منهما الآخر مع تجنب الخلوة ، حماية للشرف وصيانة للعرض .

وقد درج كثير من الناس على التهاون في هذا الشأن ، فأباحوا لبناتهم أو قريباتهم أن تخالط خطيبها وتخلو معه دون رقابة ، وتذهب معه حيث يريد من غير إشراف فهو محرم شرعاً كما أسلفنا .

وقد نتج عن ذلك أن تعرضت المرأة لضياع شرفها ، وفساد عفافها وإهدار كرامتها في كثير من الحالات .

وقد لا يتم الزواج أو يفوتها نهائياً لمثل هذه الأسباب .

الإجراء الثاني : التعرف على باقي الصفات :

الحازم هو من لا يدخل مدخلا حتى يعرف خيره من شره قبل الدخول فيه .

قال الأعمش : « كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم » .

ولا يقتصر النظر قبل الزواج في التعرف على الجمال أو القبح ، وإنما يتسع إلى التعرف على بقية الصفات عن طريق التحري ممن

خالطوا العروسين بالمعاشرة أو الجوار أو بواسطة من لهم ثقة من الأقرباء كالأم والأخت . ولا يستوصف فى أخلاق أحد الطرفين إلا من هو بصير صادق ، خبير بالظاهر والباطن ، ولا يميل فيفرط فى الثناء ولا يحسد فيقتصد .

ومن المهم أن يحتاط المستوصف فلا يقع فى خداع أو إغراء ، يعرضه إلى عدم الاستقرار بعد الزواج والتشوق إلى غير زوجته ، وما يتبعه من تعدد الزوجات وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل بعض النسوة ليتعرفن بعض ما يخفى من العيوب .

فقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم أم سليم إلى امرأة فقال : « انظرى إلى عرقوبها ، وشمى معاطفها » ، وفى رواية(١) : « شمى عوارضها » رواه أحمد والحاكم والطبرانى والبيهقى ، والمعاطف هى ناحيتا العنق ، أما العوارض فهى الأسنان فى عرض الفم وهى ما بين الأسنان والأضراس والمراد اختبار رائحة الفم .

الإجراء الثالث : تقوية الصلات والشبكة :

إذا ما ارتضى الطرفان كل منهما الآخر زوجاً له أصبحت الخطبة مقبولة من الطرفين ، وسعى كل منهما إلى تقوية صلاته بالآخر تأكيداً للعلاقة الجديدة .

وكثيراً ما يعقب الخطبة تقديم المهر كله أو بعضه ، أو تقديم

---

(١) وفى رواية : « شمى عارضيها وانظرى عرقوبيها » .

هدايا وهبات هى ما تعارف عليها الناس بالشبكة ، ولكن ذلك كله لا يبيح الخلوة للزوجين ما لم يتم عقد الزواج .

فالخطبة ليست إلا مقدمة تسبق العقد ، ويحق للطرفين العدول عنها دون عقوبة مادية يجازى بمقتضاها من يعدل عن خطبته .

ولكن العدول عن الخطبة من غير ضرورة ملزمة ، تعد خلقاً ذميماً ، لأن الخطبة وعد بالزواج ، ومن يعدل عن وعده دون ضرورة ملزمة ، يكون مخلفاً للوعد وهى صفة من صفات المنافقين لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان» ونحن نتعلم من عبد الله بن عمر رضى الله عنهما حرصه على الوفاء بشبه الوعد فى أمر الزواج ، فقد حضرته الوفاة فقال : (انظروا فلاناً – يعنى رجلا من قريش – فإنى قلت له فى ابنتى قولا كشبه العدة ، وما أحب أن ألقى الله بثلث النفاق ، وأشهدكم أنى قد زوجته) ، وفى حالة العدول عن الخطبة لأى سبب من الأسباب فإن للخاطب أن يسترد ما قدمه من مهر حقاً خالصاً له . أما الهدايا والهبات فلا يجوز الرجوع فيها إلا ما قدم منها لأجل العوض ، فلم تكن هبة خالصة أو تبرعاً محضاً مثل السوار(١) والخاتم والعقد والساعة ، فقد وهبها الزوج ليستمتع بها زينة لزوجته ، وما دام قد تم العدول عن الزواج يصير من حقه أن تعاد إليه .

---

(١) معلومة لغوية : الاسورة خطأ شائع مشهور والصواب المهجور «سوار» جمعها أساور وأسورة – بفتح الهمزة وسكون السين وكسر الواو .

الفصل الخامس

العقد

المقصود بالعقد فى الزواج ركنان هما : الإيجاب والقبول ، والإيجاب هو ما صدر أولا من أحد المتعاقدين للتعبير عن إرادته فى إنشاء الصلة الزوجية ، ويقال : إنه أوجب .

والقبول هو ما صدر ثانياً من المتعاقد الآخر من العبارات الدالة على الرضا والموافقة على إرادة المتعاقد الأول ، ويقال : إنه قبل ، فإذا ما تم الإيجاب والقبول وفقاً لشروطهما الصحيحة ، انعقد العقد ، واستوفى شروطه وترتبت عليه آثاره ، ومنها ملك المتعة فى الحال .

شروط صحة العقد :

يشترط لصحة الإيجاب والقبول — وهما ركنا — العقد الشروط الآتية :

١ — تمييز المتعاقدين : فإن كان أحدهما مجنوناً أو صغيراً لا يميز فإن الزواج لا ينعقد .

٢ — اتحاد مجلس الإيجاب والقبول ، بمعنى ألا يفصل بين الإيجاب والقبول كلام يعد فى العرف إعراضاً وتشاغلا عن الإيجاب بغيره .

ولا يشترط أن يكون القبول بعد الإيجاب مباشرة ، فلو طال المجلس

وتراخى القبول عن الإيجاب ، ولم يصدر بينهما ما يدل على الإعراض ، فالمجلس متحد . . وإلى هذا ذهب الأحناف والحنابلة .

ويشترط الشافعية الفور ، وإن كان بعضهم أجاز أن يفصل بين الإيجاب والقبول بخطبة بأن قال الولى : زوجتك ، وقال الزوج : بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، قبلت نكاحها .

والرأى الأول الذى يشترط الفورية ، وإلا لم يصح العقد ، يرى أن الخطبة مأمور بها قبل العقد وليس بين الإيجاب والقبول . أما مالك فأجاز التراضى والسير بين الإيجاب والقبول بمعنى أنه إذا مشى القوم إلى رجل فقالوا له : زوج فلاناً . قال : قد زوجته على ألف ، فرجعوا إلى الزوج فأخبروه فقال : قبلت ، فقد صح العقد وبهذا أيضاً قال أحمد .

٣ ــ ألا يخالف القبول الإيجاب إلا إذا كانت المخالفة إلى ما هو أحسن للموجب ، فإنها تكون أبلغ فى الموافقة .

فإن قال الموجب : زوجتك ابنتى فلانة على مهر قدره مائة جنيه ، فقال القابل : قبلت زواجها على مائتين ، انعقد الزواج ، لاشتمال القبول على ما هو أصلح . أما إذا قال : قبلتها على خمسين فإن الزواج لم ينعقد .

٤ ــ سماع كل من المتعاقدين بعضهما من بعض ما يفهم أن المقصود من الكلام هو إنشاء عقد الزواج ، وإن لم يفهم منه كل منهما معانى مفردات العبارة ؛ لأن العبرة بالمقاصد والنيات .

وينعقد الزواج بالألفاظ التى تؤدى إليه باللغة التى يفهمها كل من المتعاقدين متى كان التعبير الصادر دالا على إرادة الزواج دون لبس أو إبهام .

كما يصح زواج الأخرس بإشارته إن كانت الإشارة تعبر عن مفهوم القبول فى الزواج ، وإن لم تفهم إشارته لا يصح منه العقد ، لأن العقد بين شخصين ، لابد فيه من فهم كل واحد منهما ما يصدر من صاحبه .

ويصح أيضاً زواج الغائب ، فإذا كان أحد طرفى العقد غائباً وأراد أن يعقد الزواج ، فعليه أن يرسل رسولا أو يكتب كتاباً إلى الطرف الآخر يطلب الزواج .

وعلى الطرف الآخر إن كان له رغبة فى القبول — أن يحضر الشهود ويسمعهم عبارة الكتاب أو رسالة الرسول ، ويشهدهم فى المجلس على أنه قبل الزواج ، ويعتبر المجلس فى هذه الحالة شرطاً لصحة العقد .

شروط صيغة العقد :

لابد لصيغة العقد أن تدل ألفاظه دلالة قطعية على حصول الرضا ، وتحققه فعلا وقت العقد .

ولهذا اشترط الفقهاء لصيغة الإيجاب والقبول : أن تكون بلفظين وضعا للماضى أو وضع أولهما للمستقبل وثانيهما للماضى .

فمثال الأول : أن يقول العاقد الأول : زوجتك ابنتى ، ويقول القابل : قبلت .

ومثال الثانى : أن يقول العاقد الأول : أزوجك ابنتى ، فيقول له : قبلت ذلك ، لأن دلالة الماضى على حصول الرضا من الطرفين قطعية ، ولا تحتمل أى معنى آخر ، بخلاف الصيغ الدالة على الحال أو الاستقبال ، فإنها لا تدل قطعاً على حصول الرضا وقت الكلام ، فلو قال الأول : أزوجك ابنتى وقال الآخر : أقبل ، فإن الصيغة على هذا اللفظ لا ينعقد بها الزواج لاحتمال أن يكون المراد من هذه الألفاظ مجرد الوعد بالزواج .

كما اشترط الفقهاء أن تكون صيغة العقد مطلقة غير مقيدة ، أما إذا كانت معلقة على شرط أو مضافة إلى زمن مستقبل ، أو مقرونة بوقت معين فهى فى هذه الأحوال لا ينعقد بها العقد ، فمثال الأول : أن يقول الخاطب : إن التحقت بالوظيفة تزوجت ابنتك ، فيقول الأب : قبلت ، فإن الزواج بهذه الصيغة لا ينعقد ، لأن إنشاء العقد معلق على شىء قد يكون وقد لا يكون فى المستقبل ، وعقد الزواج يفيد ملك المتعة فى الحال بينما الالتحاق بالوظيفة معدوم حال التكلم والمعلق على المعدوم معدوم ، فلم يوجد زواج .

أما إذا كان التعليق على أمر محقق فى الحال فإن الزواج ينعقد مثل أن يقول : إن كانت ابنتك سنها عشرون سنة تزوجتها ، فيقول الأب : قبلت وسنها فعلا عشرون سنة ، وكذلك إن قالت : إن رضى أبى تزوجتك ، فقال الخاطب : قبلت ، وقال أبوها فى المجلس :

رضيت إذ أن مثل هذه الصيغة فى الواقع منجزة فالشرط المعلق عليه صحة العقد متحقق فعلا وقت الكلام ، ومثال الثانى : أن يقول الخاطب : تزوجت ابنتك غداً أو بعد شهر ، فيقول الأب : قبلت . فهذه الصيغة لا ينعقد بها الزواج ، لا فى الحال ، ولا عند حلول الزمن المضاف إليه، لأن الإضافة إلى المستقبل تنافى عقد الزواج الذى يوجب تمليك الاستمتاع فى الحال ، ومثال الثالث : كأن يتزوج مدة شهر أو أكثر ، أو أقل فإن الزواج لا يحل لأن المقصود من الزواج دوام المعاشرة للتوالد والمحافظة على النسل وتربية الأولاد .

وقد حكم الفقهاء على زواج المتعة والتحليل والشغار بالبطلان ، لأنه يقصد بالأول مجرد الاستمتاع الوقتى ، ويقصد بالثانى تحليل الزوجة لزوجها الأول وكلاهما متناف مع حكمة الزواج فى الإسلام ، أما الثالث فسبب تحريمه هو جعل بضع كل واحدة مهراً للأخرى وهى لا تنتفع به وسيأتى تفصيل ذلك فى أدلة تحريم هذه الأنواع الثلاثة من الزواج فيما يلى :

الدليل على تحريم زواج المتعة :

اتفق أئمة المذاهب على تحريم زواج المتعة وقالوا : إنه إذا انعقد يقع باطلا واستدلوا على هذا بما يأتى :

١ ـ أن هذا الزواج لا تتعلق به الأحكام الواردة فى القرآن الكريم بصدد الزواج ، والطلاق ، والعدة ، والميراث ، فيكون باطلا كغيره من الأنكحة الباطلة .

٢ ــ أن الأحاديث النبوية جاءت صريحة بتحريمه :

فعن سبرة الجهني : « أنه غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة ، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى متعة النساء ، فلم يخرج منها حتى حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وفى لفظ رواه ابن ماجه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم المتعة فقال : « يا أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع ألا وإن الله قد حرمها إلى يوم القيامة » .

٣ ــ أن عمر رضى الله عنه حرمها وهو على المنبر أيام خلافته ، وأقره الصحابة رضى الله عنهم ، وما كانوا ليقروه على خطأ لو كان مخطئاً .

٤ ــ قال الخطابى : تحريم المتعة كالإجماع إلا عند بعض الشيعة ، وهو لا يصح على قاعدتهم لو اتبعوها وهى الرجوع فى المخالفات إلى على رضى الله عنه ، فقد صح عن على أنها نسخت ، فعنه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر ، وعن لحوم الحمر الأهلية ، وقال البيهقى عن جعفر بن محمد : إنه سئل عن المتعة ؟ فقال : « هى الزنا بعينه » .

٥ ــ لأنه يقصد بها قضاء الشهوة ، ولا يقصد بها التناسل ، وهو المحافظة على الأولاد وهى المقاصد الأصلية للزواج ، فهو يشبه الزنا من حيث الاستمتاع دون غيره .

٦ ــ أنه يضر بالمرأة إذ تصبح كالسلعة التى تنتقل من يد إلى يد ،

كما يضر بالأولاد حيث لا يجدون البيت الذى يستقرون فيه ، ويتعهدهم بالتربية والتأديب .

ولكى نوفى هذا الموضوع حقه نرى من المناسب أن نوضح حقيقة فتيا ابن عباس فيه ليكون القارئ على بينة من هذا الأمر الهام من أمور الزواج .

فقد روى عن بعض الصحابة وبعض التابعين أن زواج المتعة حلال ، واشتهر ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ والحقيقة أن ابن عباس لم يبحها إلا عند الحاجة والضرورة ، فلما بلغه إكثار الناس منها رجع ، وكان يحمل التحريم على من لم يحتج إليها . قال الخطابى : إن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : هل تدرى ما صنعت وبم أفتيت ؟ قد سارت بفتياك الركبان ، وقالت فيه الشعراء . قال : وما قالوا ؟ قلت : قالوا :

قد قلت للشيخ لما طال محبسه
يا صاح هل لك فى فتيا ابن عباس ؟
هل لك فى رخصة الأطراف آنسة
تكون مثواك حتى رجعة الناس ؟

فقال ابن عباس : « **إنا لله وإنا إليه راجعون** » والله ما بهذا أفتيت ولا هذا أردت ، ولا أحللت إلا مثل ما أحل الله الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما تحل إلا للمضطر ، وما هى إلا كالميتة والدم ولحم الخنزير ولمن يقع تحت وطأة هذا الاضطرار الذى يبيح له المتعة ، كما يباح

أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ولمن يقع فى ظروف الاضطرار نسوق أركان مثل هذا الزواج المحرم بإجماع الصحابة ومنهم ابن عباس رضى الله عنه، حتى لا يظن ظان أنه لا ضوابط تنظم مثل هذا الزواج إذا وقع تحت ظرف الاضطرار رغم تحريمه حرمة الميتة والدم ولحم الخنزير وهى :

١ ــ الصيغة : ينعقد العقد بلفظ « زوجتك » أو « أنكحتك » أو « متعتك » .

٢ ــ الزوجة : يشترط أن تكون مسلمة أو كتابية ، ويستحب اختيار المؤمنة العفيفة ويكره الزانية .

٣ ــ المهر : يشترط ذكر المهر ، ويكفى فيه المشاهدة ويقدر بالتراضى ولو بكف من تمر .

٤ ــ الأجل : وهو شرط فى العقد ، ويتقرر بالتراضى ، كاليوم والسنة والشهر ولابد من تعيينه ، ومن أحكام هذا الزواج :

(أ) يلحق الولد بالزوج .

(ب) لا يثبت به ميراث بين الزوجين .

(ج) الولد يرث الزوجين .

(د) تنقضى عدتها إذا انقضى أجلها بحيضتين إن كانت ممن يحضن ، فإن كانت ممن لا تحضن فعدتها ٤٥ يوماً .

٥ ــ لا يقع بالمتعة طلاق ولا لعان .

ولقد شرع الإسلام للناس التسامى بغريزتهم الجنسية إذا لم يجدوا

نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والمقصود من التسامى بالغريزة الجنسية هو ما اصطلح عليه كثير من علماء علم النفس بوجوب تعلية هذه الغريزة، وتصعيدها فى آفاق علمية أوأدبية وفنية نافعة إذا ماتعذر الزواج .

بسم الله الرحمن الرحيم « **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله . . .** » . (النور — ٣٣)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ، فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

فالاستعفاف والصوم نوعان رفيعان من أنواع التسامى بالغريزة الجنسية ، سبق إليهما الإسلام فى حالة تعذر الزواج ، وفيهما الغناء عن زواج المتعة .

الدليل على تحريم زواج التحليل :

١ — عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله المحلل والمحلل له » رواه أحمد بسند صحيح .

٢ — عن عبد الله بن مسعود قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له » رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقد روى هذا الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه .

٣ — عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له » رواه ابن ماجه والحاكم .

٤ – عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المحلل ؟ فقال : « لا . إلا نكاح رغبة لا دلة ولا استهزاء بكتاب الله عز وجل حتى تذوق عسيلته » رواه أبو إسحاق الجوزجانى .

وهذه النصوص صريحة فى بطلان هذا الزواج وعدم صحته ، لأن اللعن لا يكون إلا على أمر غير جائز فى الشريعة ، وهو لا يحل المرأة للزوج الأول ولو لم يشترط التحليل عند العقد ، ما دام قصد التحليل قائماً ، فإن العبرة بالمقاصد والنوايا . وقد ذهب كل الفقهاء إلى تحريمه ، إذا اشترط فى عقد الزواج أن يتزوجها ليحلها ثم يطلقها ما عدا أبى حنيفة وزفر قال : إن اشترط ذلك عند إنشاء العقد بأن صرح أنه يحللها تحل للأول ويكره ، لأن عقد الزواج لا يبطل بالشروط الفاسدة فهى تحل للزوج الأول بعد طلاقها من الزوج الثانى أو موته عنها ، وانقضاء عدتها . أما إذا لم يشترط ذلك فى عقد النكاح ، فقد أجازه آخرون فى القضاء ، لأن القضاء يتم بالمظاهر لا بالمقاصد والضمائر ، ولأن النيات فى العقود غير معتبرة ومنهم الإمام الشافعى . قال الإمام الشافعى : المحلل الذى يفسد نكاحه هو من يتزوجها ليحلها ثم يطلقها فأما من لم يشترط ذلك فى عقد النكاح فعقده صحيح . والواضح من قول الإمام الشافعى رضى الله عنه أن الحساب على النوايا فى الآخرة متروك إلى أمر الله . أما فى الدنيا ، فإن القاضى يحكم بنص العقد ، وليس فى النص شبهة المحلل ولمن يريد أن يبتغى وجه الله لا أحكام القضاء ، فليقرأ معى ما قاله ابن القيم وابن تيمية فى هذا الزواج .

قال ابن القيم : « كيف يقال : إن هذا الزواج تحل به الزوجة لزوجها الأول ، مع قصد التوقيت وليس له غرض فى دوام العشرة

ولا ما يقصد من الزواج مثل التناسل وتربية الأولاد وغير ذلك من المقاصد الحقيقية لتشريع الزواج » . وفى هذا دلالة صريحة على بطلان نكاح المتعة حتى عند الاضطرار .

إن هذا الزواج الصورى كذب وخداع لم يشرعه الله فى دين ، ولم يبحه لأحد ، وفيه من المفاسد والأضرار ما لا يخفى على أحد .

وقال ابن تيمية : « دين الله أزكى وأطهر من أن يحرم فرجاً من الفروج حتى يستعار له تيس من التيوس . لا يرغب فى نكاحه ، ولا مصاهرته ، ولا يريد بقاءه مع المرأة أصلا ، فينزو عليها ، فتحل بذلك ، فإن هذا سفاح وزنا ، كما سماه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكيف يكون الحرام محللا ؟ أم كيف يكون الخبيث مطيباً ؟ أم كيف يكون النجس مطهراً وغير خاف على من شرح الله صدره للإسلام ، ونور قلبه بالإيمان . إن هذا من أقبح القبائح التى لا تأتى بها سياسة عاقل ، فضلا عن شرائع الأنبياء لا سيما أفضل الشرائع وأشرف المناهج » . انتهى ...

ثانياً : أقوال الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١ — عن عمر رضى الله عنه قال : « لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما » ، فسئل ابنه عن ذلك ؟ فقال : « كلاهما زان » رواه ابن المنذر وأبو شيبة وعبد الرازق .

٢ — سأل رجل ابن عمر فقال : ما تقول فى امرأة تزوجتها لأحلها لزوجها ولم يأمرنى ولم يعلم ؟

فقال له ابن عمر : « لا ، إلا نكاح رغبة إن أعجبتك أمسكتها ، وإن كارهتها فارقتها وإنا كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وقال : لا يزالان زانيين وإن مكثا عشرين سنة إذا علم أنه يريد أن يحلها .

أدلة تحريم زواج الشغار :

وهو أن يزوج الرجل وليته رجلا على أن يزوجه الآخر وليته وليس بينهما صداق . وقد حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان معروفاً فى الجاهلية ، فقال : « لا شغار فى الإسلام » رواه مسلم عن ابن عمر ، ورواه ابن ماجه فى حديث أنس بن مالك — رضى الله عنهم .

وقد سمى الشغار شغاراً لأنه خلو من المهر كما يقال : بلدة شاغرة أو مكان شاغر إذا خلا من السكان .

وقيل : إن علة تحريمه جعل بضع كل واحدة مهراً للأخرى وهى لا تنتفع به ، فلم يرجع إليها المهر ، بل عاد المهر إلى الولى .

ولذلك ذهب أبو حنيفة إلى أنه يقع العقد صحيحاً ، ويجب لكل واحدة من البنتين مهر مثلها على زوجها ، فالفساد فيه من قبل المهر ، وهو لا يوجب فساد العقد ويكون فيه مهر المثل . أما جمهور العلماء فقد استولوا بهذه الأحاديث على أن عقد الشغار لا ينعقد أصلا وأنه باطل لأنه مشروط بشرط غير محقق فى حال العقد وكأنه يقول : « لا ينعقد زواج ابنتى حتى ينعقد زواج ابنتك » .

الفصل السادس
ليلة الزفاف

ليلة الزفاف هي ليلة إعلان تنفيذ الزوجين لحقهما في ملك المتعة المترتبة على العقد ويسن أن يكون هذا الإعلان مصحوباً بمظاهر الأفراح والغناء المباح مع الالتزام بالآداب الإسلامية ، والبعد عن ارتكاب المعاصي ، فلا يصح في الأفراح الاختلاط مع التبرج ولا التبذير ، ولا شرب المنكرات ، ولا المغالاة في سماع مالا يليق من الأصوات :

عن عائشة — رضي الله عنها — أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياعائشة ما كان معكم من لهو ! ! فإن الأنصار يعجبهم اللهو ، فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغنى » ؟

قلت : تقول : ماذا ؟

قال : تقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
فلولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم
ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاراكم

(رواه الطبراني)

وعن عامر بن سعد البجلى قال : دخلت على قرظة بن كعب ، وأبى بن مسعود وذكر ثالثاً ، وجوارى يضربن بالدف ويغنين ، فقلت : تقرون على هذا وأنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : « إنه رخص لنا فى العرسات وفى البكاء على الميت فى غير نياحة » أخرجه الحاكم والبيهقى والنسائى .

وعن أبى بلج يحيى بن سليم قال : قلت لمحمد بن حاطب : تزوجت امرأتين ما كان فى واحدة منهما صوت (يعنى غناء ودفاً) ، فقال : محمد رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فصل ما بين الحلال والحرام الصوت بالدف » أخرجه النسائى والترمذى .

والغناء الجائز فى الأفراح هو ماكان سليم المعنى خالياً من معانى الفجور والمعازف ماعدا الدف فقط ، أما ما يشتمل على ذكر الخدود والقدود ، والإدلال والجمال ، والهجر والوصال ، والضم والرشف والتهتك والكشف ، ومعاقرة العقار ، وخلع العزار والوقار ، فإن ذلك كله جالب للبلية ، فكم لهذه الوسيلة الشيطانية من قتيل دمه مطلول وأسير بهموم غرامه وهيامه مكبول ، ولا سيما إذا كان المغنى حسن الصورة والصوت كالمرأة الحسناء والغلام الجميل ! !

التزين :

من السنة أن يتزين الزوج لزوجته ، كما تتزين الزوجة لزوجها فقد ورد فى بعض الآثار : « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم ، واستاكوا ، وتزينوا وتنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلوا ذلك ،

فزنت نساؤهم » وإذا كانت الزينة واجبة على الرجل لزوجته فى كل الأيام فهى أوجب فى ليلة الزفاف ، لما للقاء الأول من أثر فى النفوس لا يزول بمرور الأيام .

سئلت عائشة رضى الله عنها « بأى شىء كان يبدأ النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته ؟ » قالت : « بالسواك » رواه مسلم .

ولعل النبى صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ليستقبل زوجاته بالتقبيل ، وما أحلى أن يتفرق الزوجان صباحاً بالتقبيل ، ويلتقيا مساء بالتقبيل ، لتبقى عاطفتهما مشبوبة .

قال ابن عباس : إنى أتزين لامرأتى كما تتزين لى . وما أحب أن أستطف كل حقى الذى عليها فتستوجب حقها الذى على ، لأن الله تعالى يقول : « . . . **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة . . .** » . (البقرة – ٢٢٨)

وكذلك على المرأة أن تتزين لزوجها ، فإن الزينة أدعى لشهوة الرجل وأملأ لعينه ، وأظهر لمحاسن المرأة وأدوم للألفة والمحبة والمودة وإن المرأة تحظى عند زوجها بعد تمام خلقها وكمال حسنها بأن تكون مواظبة على الزينة والنظافة ، عاملة بما يزيد فى حسنها من أنواع الحلى واختلاف الملابس ووجوه التزين بما يوافق الرجل ويستحسنه منها فى ذلك . ولتحذر كل الحذر أن يقع بصر الرجل على شىء يكرهه من وسخ أو رائحة مستنكرة أو تغير مستنكر ويحسن أن تضاعف الزوجة من تزينها فى الأوقات التى ذكرها الله سبحانه فى القرآن وهى الأوقات المناسبة للاستمتاع .

« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » . (النور — ٥٨)

ولكن ينبغى ألا تبالغ المرأة فى أمر الزينة فتجعلها أكبر همها ومبلغ علمها وأعظم مشاغلها ، فإن الجمال كل الجمال فى البساطة ، والاعتدال ، فيكفى أن تعتنى المرأة بهندامها ولا تظهر أمام زوجها إلا فى أجمل صورة وكأنها فى ليلة عرسها .

وليعلم العروسان أن الجمال ينقسم إلى قسمين : ظاهر وباطن ، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته وهو جمال العلم والعقل ، والجود والعفة والشجاعة وكثيراً ما ينعكس هذا الجمال على الصورة الظاهرة فيزينها ، وإن لم تكن ذات جمال ، ولكنه يكسوها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتسبت روحها من تلك الصفات .

وحبذا لو أخذ كل من العروسين بحظ من الجمال الباطن والجمال الظاهر ، وليحذرا الاقتصار على الجمال الظاهر حتى لا يكونا فيمن قال فيهم الشاعر :

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوسى .

قال تعالى : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير . . . » . (الأعراف — ٢٦)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (متفق عليه)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » .

قالوا : يارسول الله هذا الرجل يحب أن تكون نعله حسنة ، وثوبه حسناً، أفذلك من كبر ؟ قال : « لا . إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » (رواه مسلم)

الطيب يولد المحبة :

قال بعضهم : تزين المرأة وتطيبها لزوجها من أقوى أسباب المحبة والألفة بينهما ، وعدم الكراهة والنفرة ، لأن العين ومثلها الأنف رائدا القلب . ولهذا كان من وصايا نساء العرب لبعضهن « إياك أن تقع عين زوجك عن شىء يستقبحه أو يشم منك مايستقبحه » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حبب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

ونظراً لخطورة الطيب ، وقوة تأثيره نهى الرسول صلى الله عليه وسلم من خروج المرأة متعطرة إلى الشارع ، كيلا تفتن الرجال وتثير هم وقال : هى كذا وكذا — يعنى « زانية » .

الوليمة :

تسن الوليمة فى ليلة الزفاف وقد أفتى بعض الفقهاء بوجوبها .

لما خطب « على » فاطمة رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لابد للعرس من وليمة » . (رواه أحمد)

والسنة أن يولم بشاة أو أكثر إن وجد سعة ، فعن أنس رضى الله عنه قال : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أولم على امرأة من نسائه ما أولم على زينب فإنه ذبح شاة » رواه البخارى ومسلم ..

وإن لم يجد سعة فيجوز أن تؤدى الو ة بأى طعام تيسر ، ولولم يكن فيه لحم ، فعن أنس رضى الله عنه : « أقام النبى صلى الله عليه وسلم بين خيبر والمدينة ثلاثاً يبنى عليه بـ (صفية) ودعوت المسلمين إلى وليمته ، ما كان فيها من خبز ولالحم ، وما كان فيها إلا أن أمر بالأنطاع فألقى عليها التمر والأقط والسمن » رواه البخارى ومسلم .

ويجب ألا يهمل العروسان أحداً من أقاربهما وأصدقائهما فإن فى تخصيص البعض إيحاشاً وإيذاء للآخرين . كما لا يجوز أن يختصا بالدعوة الأغنياء دون الفقراء لقوله صلى الله عليه وسلم : « وشر طعام ، طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويمنعها المساكين ، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله » .

والظاهر من هذا الحديث أن من آداب الوليمة تلبية الدعوة ، وهذا واضح أيضاً فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب ، فإن كان مفطراً فليطعم ، وإن كان صائماً فليدع » .
(رواه أحمد ومسلم)

فإن كان صومه نفلا وشق على صاحب الطعام صومه فالأفضل الفطر لقوله صلى الله عليه وسلم : « الصائم المتطوع أمير نفسه ، إن شاء صام وإن شاء أفطر » رواه الحاكم والبيهقى والمقصود من تلبية الدعوة هو اتباع أمر الشارع وليس قضاء شهوة البطن ، فإن فى إجابة الدعوة إدخال السرور على نفس أخيك حيث يحس أنك أكرمته بزيارتك ، ولو امتنعت لفتحت عليه أبواب سوء الظن عن سبب الإمتناع . ومن آداب الإجابة الدعاء لصاحب الدعوة عند الفراغ من الطعام .

فعن (عبد الله بن يسر) أن أباه صنع للنبي صلى الله عليه وسلم طعاماً فدعاه فأجابه ، فلما فرغ من طعامه قال : « اللهم اغفر لهم وارحمهم وبارك لهم فيما رزقتهم » رواه مسلم والترمذى . أما إذا كان فى الوليمة معصية فعليه أن لا يجيب إلا إذا قصد إنكارها ، ومحاولة إزالتها ، فإن أزيلت قعد وإلا رجع .

ويستحب للأقرباء والأصحاب من ذوى السعة أن يساهموا ويشاركوا بمالهم فى الوليمة ، فعن أنس رضى الله عنه قال وهو يروى قصة زواج النبى صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيي بن أخطب : حتى إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم ، فقال : « من كان عنده شيء فليجيء به ، وبسط نطعاً ، فجعل الرجل يجيء بالأقط(١) ، وجعل الرجل يجيء بالتمر ، وجعل الرجل يجيء بالسمن ، فحاسوا حيساً (أى جهزوا

---

(١) اللبن المجفف

طعاماً مما ذكر » ، فجعلوا يأكلون من ذلك الحيس ويشربون من حياض إلى جانبهم من ماء السماء ، فكانت وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم » . (رواه مسلم)

فى مخدع العرس :

جرت العادة أن تتولى الماشطة جلاء العروس ليلة عرسها ، وينبغى لها ليلة العرس أن تعرض على العريس جميع محاسنها ، وأن تظهر له ما خفى من خضابها أو زينتها ، فإن أغفلت شيئاً من ذلك نبهتها العروس له ، بيد أو برجل أو بإشارة . قالت : رعيب الماشطة جلوت ريا بنت الحجاب على زوجها قدامة بن وكيع ، وكانت جارية سمينة تنظر بعينى (غزالة) وتلتفت عن جيد غزالة فاتنة الحسن جامعة الخلق . قالت : فإنى لأرفع يدها لأرى زوجها حسن خضابها ، إذا أخرجت رجلها من تحت غلالة فعلمت ما تريد ، فجعلت أريه مرة يدها ومرة رجلها ، فقال لى : « رعيب ، إنى لأنظر إليها بكل نظرى فكلما ارتد طرفى إلى بدنها ، مال إلى رجلها ، فما قضيت وطرى من حلاوة نظرى ، قلت فكان ذلك يعجب العروس » . ويستحسن للمرأة ليلة بنائها ألا تفرط فى التمنع على زوجها فيما يريد منها ولا بأس بالامتناع الخفيف الذى يهيجه ويقوى حرصه .

كذلك ينبغى للعروس(١) أن يحسن التصرف مع عروسه ليلة

---

(١) العروس ما يستوى فيه المذكر والمؤنث ويجوز فيه تقليل (عريس) التفرقة بين المذكر والمؤنث وإن كان الأصل فى الاثنين فعول .

الزفاف فلا يتخطى حدود اللياقة والكياسة ويتعجل تحقيق الاتصال الجنسى دون مقدمات لاستئناس الزوجة وإبعاد الخجل عنها بصورة تدريجية وصدق الرسول الكريم: «لا ترتموا على نسائكم كالبهائم ولكن اجعلوا بينكم وبينهن رسولا. قالوا: وما الرسول يارسول الله؟ قال: القبلة».

فعن أسماء بنت يزيد بن السكن: «قينت عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جئته، فدعوته لجلوتها، فجاء إلى جانبها بعس (قدح) لبن، فشرب، ثم ناولها النبي صلى الله عليه وسلم فخفضت رأسها واستحيت، فانتهرتها وقلت لها: خذى من يد النبي صلى الله عليه وسلم. قالت: فأخذت فشربت شيئاً، ثم قال لها: أعطى تربك (صديقاتك).

وهكذا تمت حفلة الزفاف وانتهت بدون تكلف وبكل بساطة.

التوبة والاستغفار:

يجب على الزوجين ليلة البناء أن يطهرا باطنهما ويزيناه بالتوبة من جميع الذنوب والآفات والآثام والعيوب، فيدخلان طاهرين نظيفين حساً ومعنى لعل الله يكمل لهما أمر دينهما بهذا الزواج. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تزوج فقد استكمل نصف دينه، فليتق الله فى النصف الآخر».

وينبغى لهما ليلة البناء أيضاً وفى كل ليلة ألا يدعا أحداً يقف عند الباب لئلا يشوش عليهما.

صلاة الزوجين معاً فى مخدع الزوجية :

إذا ما دخل الزوجان مخدع الزوجية فيستحب لهما أن يصليا ركعتين لأن ذلك منقول عن السلف الصالح رضوان الله عليهم .

فعن أبى سعيد أبى أسيد رضى الله عنه قال : « تزوجت وأنا عبد مملوك ، فدعوت نفراً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وأبو ذر وحذيفة ، وأقمت الصلاة فذهب أبو ذر ليتقدم فقالوا : إليك . قال : أوكذلك ؟ قالوا : نعم ، فتقدمت بهم وأنا عبد مملوك ، وعلمونى فقالوا : إذا دخل عليك أهلك فصل ركعتين ثم سل الله من خير ما دخل عليك ، وتعوذ به من شره ، ثم شأنك وشأن أهلك » أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة فى المصنف .

وعن شقيق قال : جاء رجل يقال له : (أبو حريز) فقال : إنى تزوجت جارية شابة أى بكراً وإننى أخاف أن تفركنى (أى تبغضنى) ، فقال عبد الله بن مسعود : إن الإلف من الله والفرك من الشيطان يريد أن يكره إليكم ما أحل الله لكم .

فإذا أتتك فرها أن تصلى وراءك ركعتين وقل : « اللهم بارك لى فى أهلى ، وبارك لهم فى . اللهم اجمع بيننا ما جمعت بخير ، وفرق بيننا إذا فرقت بخير » .

ويستحب للزوج بعد صلاة الركعتين أن يقرأ الفاتحة ثلاثاً ، وهو هو الله أحد ثلاثاً ، ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، ثم يدعو الله بأن يرغب زوجته إليه فى حسن العشرة والألفة الحسنة ودوام

المحبة ، ثم يقول : « اللهم ارزقهم منى وارزقنى منهم ، وارزقنى ألفتهم ومودتهم ، وارزقهم ألفتى ومودتى ، وحبب بعضنا إلى بعض ».

فإن فرغ الزوج من الصلاة والدعاء فليقبل بوجهه إليها ، ويجلس بإزائها ويسلم عليها أيضاً ويباسطها بالكلام الحسن مما ينم عن الفرح بها لإزالة الوحشة عنها ، فإن لكل داخل دهشة ، ولكل غريب وحشة ، ويلاطفها بتقديم شيء من الشراب المنعش أو الحلويات ونحو ذلك .

ثم يضع يده على ناصيتها (منبت الشعر فى مقدم الرأس) ويدعو بالخير والبركة كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج أحدكم امرأة ، فليأخذ بناصيتها وليسم الله عز وجل ، وليدع بالبركة وليقل : اللهم إنى أسألك من خيرها وخير ما جبلت عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلت عليه » أخرجه البخارى وأبو داود وابن ماجه والحاكم .

خلع الثياب :

قال صاحب نثر الدر وأبو الفرج فى الأغانى : لما أهديت إحدى العرائس إلى زوجها وكان خليفة وكان أخوها قد زوجها منه ووضع لها سريراً إلى جانب سريره ، فجلست عليه ثم قال لها : إما أن تقومى إلى ، وإما أن أقوم إليك ، فقامت إليه وجلست معه ، فوضع قلنسوته وقال : لا يروعك ما ترين من صلعى ، فإن وراء ذلك ما تحبين ! فقالت : إنى من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهول الصلع ، فأمرها

أن تخلع ثيابها قطعة قطعة بالتدريج ، ثم قال : حلى إزارك . قالت : ذاك إليك (أى هذه وظيفتك بأن تحله بنفسك) . قال : صدقت فبنى بها فأعجبته .

الملاعبة :

وعليه قبل الجماع أن يمازحها ويلاعبها ويلامسها ويعانقها ويقبلها ولا يأتيها على غفلة ، فإن فى الليلة الأولى من حياة الزوجين أثراً كبيراً فى توليد الحب أو البغض ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ، ليكن بينهما رسول » .

قيل : وما الرسول ؟

قال : « القبلة والكلام » .

ويجب على العروس أن تعلم أن لحديثها وصوتها سحراً ينبغى أن توجهه إلى زوجها حتى تسارع للوصول إلى شغاف قلبه ، ولتذكر قول الشاعر :

وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

حكى أنه كان لهارون الرشيد جارية سوداء قبيحة المنظر ، فنثر يوماً دنانير بين الجوارى فصارت الجوارى يلتقطن الدنانير ، وتلك الجارية واقفة تنظر إلى وجه الرشيد فقال لها : ألا تلتقطين الدنانير ؟

فقالت : إن مطلوبهن الدنانير ومطلوبى صاحب الدنانير .

فأعجبته فقربها وأثنى عليها خيراً ، فقام حسن كلامها مقام الجمال .

قال علي بن الجهم : اشتريت جارية فقلت لها : ما أحسبك إلا بكراً ؟

فقالت : كثرت الفتوح فى زمان الواثق .

وقلت لها ليلة : كم بيننا وبين الصبح ؟ قالت : عناق مشتاق .

فقلت لها : نجعل مجلسنا الليلة فى القمر . قالت : ما أولعك بالجمع بين الضرائر ؟

وكانت تكره الحلى وتقول : إن الحلى تستر المحاسن كما تغطى القبائح .

فأحبها حباً شديداً لحلاوة كلامها .

مداعبة البظر :

من فنون المداعبة الجنسية أن يسبق عملية الجماع مداعبة بلطف لأن هذا العضو حساس جداً إلى حد لا يكاد يصدقه عقل ، فهو نقطة مركزية لإثارة المرأة من الناحية الجنسية ووصولها إلى رعشة الجماع ، فإذا ما أثيرت المرأة بمداعبة البظر يبدأ الرجل فى الإيلاج ليضمن أن تستكمل المرأة لذتها الجنسية إما معه أو قبله .

مثل هذه الملاعبات والمداعبات بين العروسين فن هام يتوقف عليه وجود المتعة واستمرار الحياة الزوجية السعيدة ، فإن المرأة تحب الرجل ما يحب هو منها فإذا أتاها على غفلة فقد يقضى منها حاجته ،

قبل أن تقضى هى ، فيؤدى ذلك إلى تشويشها أو إفساد دينها والخير كله فى السنة : وهى ألا يأتيها حتى يحادثها ويؤانسها ويضاجعها ، ثم يقبل على حاجته .

الجمـــاع :

الجماع هو أن يأتى الرجل زوجته فى فرجها (موضع الحرث) من أى جهة شاء من خلفها أو من أمامها لقوله تعالى : « **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم . . .** » . (البقرة — ٢٢٣)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مقبلة أو مدبرة ما دام ذلك فى الفرج » . (رواه البخارى ومسلم)

وقد نزلت هذه الآية لأن الأنصار وهم أهل وثن قبل الإسلام كانوا يعيشون مع اليهود وهم أهل كتاب ، وكانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم فيقتدون بكثير من فعلهم . وقد أخذوا عنهم عادتهم أن لا يأتوا النساء إلا على حرف (أى على جنب) . أما المهاجرين وهم من قريش فقد كان من عادتهم أن يتلذذوا بالنساء مقبلات ، ومدبرات ومستلقيات ، فلما قدم المهاجرون المدينة ، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت : إنما كنا نؤتى على حرف ، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبنى حتى شرى أمرهما ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله الآية .

« **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم . . .** » .

(البقر — ٢٢٣)

ومن السنة الماضية أنه لا يكون معه أحد فى الغرفة غير زوجته فقد ذكر عن سبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما إذا كانت له حاجة إلى أهله أخرج الرضيع من الغرفة .

وقت الجمـــاع :

يكون الجماع فى أول الليل أو آخره لكن أول الليل أولى لأن وقت الغسل يبقى زمنه متسعاً بخلاف آخر الليل ، فإنه قد يضيق عليه ، وقد يؤول إلى تفويت الصبح فى جماعة أو إلى إخراج الصلاة عن وقتها .

كما أن التأخر إلى آخر الليل عقب نوم عميق قد يغير رائحة الفم أو الأنف فإذا شمه أحدهما كان ذلك سبباً لكراهة صاحبه :

ويعتبر أحسن أوقات الجماع بعد صلاة الفجر قليلا حيث يكون الزوجان مستريحى الجسم والفكر ،ولا بأس من النوم بعد ذلك ولو قايلا وفى ذلك متعة عظيمة .

كما أن فى الغسل أو الوضوء قبل الجماع تنشيطاً للجسم وتهيئة له ، قال القاضى عياض رحمه الله : إن غسل الذكر يقوى العضو وينشطه .

غشاء البكارة :

قال الشيخ على محفوظ فى كتابه (الإبداع فى مضار الابتداع) : « ومن أشنع البدع وأقبح العادات فض البكارة بالإصبع ، فإنه مع مخالفته للسنة المحمدية كثيراً ما يضر بالعروس ويسبب لها العقم ، ويورثها فى الغالب داء الرهقان ، وكل ذلك ضرر لا تخفى جرمته » .

ولا يبرر هذا السلوك طلب إثبات شرف الفتاة وطهرها ، فإن المرأة أو الفتاة التي لم يكن لها من دينها وحسن نشأتها ما يعصمها من الزلل ، لا تعجزها الحيلة فى خداع زوجها ليلة الزفاف ، وهذه الحيل معروفة لدى الأطباء والقابلات وقرناء الشيطان ، ولها نفس الظاهرة الناتجة عن إزالة البكارة ، وسيل الدماء .

ومن ناحية أخرى فإن أغشية البكارة تختلف من واحدة إلى أخرى ، فقد تكون بالغة الرقة عند بعضهن ، فتهتك لمجرد حركة عنيفة أو سقطة شديدة دون أن تشعر الفتاة بما أصابها إلا حين تفاجأ فى ليلة الزفاف ، ويحيط بها العار وهى منه براء فى حين أن بعض الأغشية الأخرى تمنح لصاحبتها فرصة الالتئام بعد العبث بها والنيل منها . وهناك نوع ثالث من الأغشية لايتمزق بأى حال من الأحوال مهما كثر الاستعمال ولا يزول إلا بالولادة فقد تحمل صاحبته ، وما زال غشاء بكارتها سليماً .

فليحذر العروسان من الوقوع فى اتخاذ غشاء البكارة مقياساً للطهر فإن مقياس الطهر الوحيد هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

من آداب الجمـــاع :

١ ـ من آداب الجماع أن لا يجامع زوجته وهى فى ثيابها ، بل حتى تنزعها كلها ، وتدخل معه فى لحاف واحد . ويجب على الرجل أيضاً أن يتجرد من ثيابه بشكل عادى وبصورة تدريجية كيلا تفاجأ الزوجة .

ولا شك فى أن للتجرد من الثياب فوائده منها أن فيه راحة البدن

من حرارة النهار ، ومنها سهولة التقلب يميناً وشمالا ، ومنها إدخال السرور على الأهل وزيادة التمتع . وقد قال ابن يامون فى قصيدته :

واحـذر من الجماع فى الثيـاب فهو من الجهل بلا ارتياب
بل كل ما عليها ــ صاح ــ ينزع وكن ملاعباً لهـا لا تفزع

٢ ــ ينبغى لمن يدخل بزوجته البكر أن لا يعزل عنها كما يفعل بعض الناس (والعزل هو أن يخرج عضو الذكورة قرب الإنزال من الفرج وينزل المنى بالخارج)، وعليه ألا ينزع إلا بعد الإنزال، وذلك كى يسرع ماؤه إلى رحمها، لعل الله يجعل له من ذلك ذرية ينفعه بها .

ومن يدرى فلعل ذلك يكون آخر عهده بالنساء ، فالإنسان لا يأمن الموت ، يأتيه فى كل لحظة . . وفضلا عن ذلك فإن العزل يوقع بالمرأة من الإيذاء النفسى ما يورث البغض والحقد فى وجدانها .

٣ ــ ينبغى للمرأة أن تضم فرجها على عضو الذكورة حين الإنزال وتضغط بقدر ما تستطيع فإن فى ذلك غاية المتعة واللذة لكليهما .

٤ ــ إذا أنزل الزوج قبل زوجته ، فعليه أن لا ينزع ، بل عليه أن يتمهل حتى تنزل هى ، لأن ذلك من السنة ، ففى الحديث : « ارضوهن فإن رضاهن فى فروجهن » ، فإذا فعل الزوج ذلك تأكدت عرى التكامل الروحى والنفسى والبدنى بينه وبين زوجته .

٥ ــ قال الشيخ مرزوق فى كتابه (النصيحة الكافية) : إن حق الزوجة على زوجها أن يأتيها فى كل أسبوع مرتين وعليه أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها فى التحصين ، لأن تحصينها واجب ، ولا ينبغى للزوج أن يقلل عليها حتى تتضرر ، ولا يكثر عليها حتى تمل .

وليس هناك عدد محتوم أو ملزم للرجل والمرأة على السواء ولكنه يخضع كثرة أو قلة للمزاج والقدرة والضرورة والظروف الصحية والنفسية والاجتماعية .

٦ – يكره للزوج أن يأتى امرأته من غير أن تطيب نفسها بذلك ، وكذلك أن يأتيها على غفلة لأن ذلك يفسد عليها دينها وعقلها .

٧ – يكره للزوجين أن يمسحا فرجيهما بخرقة واحدة ، بل يجب إعداد خرقة مستقلة لكل واحد منهما .

٨ – يحرم على الزوج أن يأتى زوجته جاعلا بين عينيه غيرها ، لأن ذلك نوع من أنواع الزنا ، وكذلك يحرم عليها .

وقد قال العلماء : من أخذ كوز ماء بارد فشربه وصور بين عينيه أنه خمر صار ذلك الماء عليه حراماً .

والمرأة كالرجل أو أشد .

٩ – ينهى عن مس الذكر باليمين ، وعن إتيان المرأة بعد وقوع الاحتلام حتى يغتسل أو يغسل فرجه أو يتبول ليذهب أثر منى الاحتلام .

١٠ – الجماع جائز فى كل الشهور والأوقات والأيام ، وفى كل ساعة من الليل أو النهار إلا فى فترات الحيض والنفاس والإحرام والصيام .

غسل الجمعة سنة مؤكدة لذاته ولو من غير جماع فهو سنة مؤكدة .

١١ – لا يجوز أن يدفع العريس للعروس شيئاً من المال مبلغاً رمزياً كى تخلع ثيابها ، كما لا يجوز أن يعطيها شيئاً عند تمكينها منه فإنه أشبه بالزنا .

١٢ – يستحب للزوجين أن يغسلا أسنانهما وفيهما ، ثم يطيب الفم بطيب فائح ، لأن ذلك أدعى إلى الالتصاق والعناق والاتحاد ، وأدعى إلى المحبة .

وليس ذلك خاصة بليلة البناء ، بل هو مطلوب فى سائر الأوقات ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » ، وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من سنن المرسلين : الختان ، والتعطر ، والسواك ، والنكاح » . (رواه الترمذى)

١٣ – إذا أتى الرجل زوجته ، ثم أراد أن يعاود الجماع فعليه بالوضوء لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ وضوءه للصلاة فإنه أنشط للعود » . (رواه مسلم)

١٤ – إذا أراد النوم وهما جنبان فعليهما بالوضوء أيضاً ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يأكل أو ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ وضوءه للصلاة » رواه البخارى ومسلم . . وهذا الوضوء لا ينقضه نواقض الوضوء ، وإنما يبطل فقط بالجماع وقد جعله التتائى لغزاً ، بقوله :

إذا سئلت وضوءاً ليس ينقضه سوى الجماع وضوء النوم للجنب

١٥ – يجب الاغتسال من الجماع قبل الصلاة والاغتسال قبل النوم أفضل ، لحديث عبد الله بن قيس – رضى الله عنه – قال : سألت عائشة قلت : كيف كان صلى الله عليه وسلم يصنع فى الجنابة ؟ أكان يغتسل قبل أن ينام ، أم ينام قبل أن يغتسل ؟

قالت : « كل ذلك كان يفعل ، ربمـا اغتسل فنام وربمـا توضأ فنام . قلت : « الحمد لله الذى جعل فى الأمر سعة » . (رواه مسلم وأحمد)

١٦ – يجوز للعروسين أن يغتسلا معاً فى مكان واحد ولو رأى منها ورأت منه ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد بينى وبينه ، تختلف أيدينا فيه ، فيبادرنى حتى أقول : دع لى . . دع لى . . قالت وهما جنبان » رواه البخارى ومسلم ، وعن معاوية بن حيدة قال : قلت : يا رسول الله عوراتنا ، ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجك أو ما ملكت يمينك » .

قال : قلت : يا رسول الله إذا كان القوم بعضهم فى بعض . قال : « إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها » .

قال : قلت : يا رسول الله إذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : « الله أحق أن يستحيا منه من الناس » . (رواه أحمد وأبو داود)

* * *

الفصل السابع

قمة اللذة فى الجماع على
شريعة الإسلام

قال أبو ذر : إن أناساً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم . قال : « أوليس قد جعل الله ما تصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وبكل تكبيرة صدقة ، وبكل تهليلة صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة » . قالوا : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام ، أكان عليه وزر ؟ » قالوا : بلى . قال : « وكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له فيها أجر » وذكر أشياء صدقة ، صدقة ثم قال : « ويجزئ من هذا كله : ركعتا الضحى » . (رواه مسلم والنسائى)

ويدل هذا الحديث الشريف على أن الإسلام قد ارتفع بقضية الجنس إلى مستوى العبادات الصالحة إذا ما ابتغى الزوجان طلب العفة والإحصان وبهذا يكون فى إشباع الرغبة الجنسية لذتان : لذة بدنية عارمة ، ولذة روحية فياضة ولعمرى . إن اجتماع هاتين اللذتين فى نفس واحدة لهو قمة سعادتها التى لا تدانيها قمة .

أما فى الشرائع الأخرى، التى تجعل من قضية الجنس قضية إثم وقذارة ، بل شيطاناً فإنها تشعر المرء وهو يقضيها بأنه يرتكب عملا، دنيئاً يحتقر به نفسه ، فينفر منه ، ولا يشعر بلذة فيه فلا يكون أمامه إلا طريقان : إما اجتناب الجنس وتحريمه بالكلية رهبنة منه وذلك يؤدى إلى الشذوذ والكبت ، وأما الانحلال الجنسى والاغراق فيه عن طريق الحرام كما هو حادث اليوم فى كل البلاد غير الإسلامية وبخاصة الدول الغربية ، فالغربيون بحسب عقيدتهم يعتبرون المرأة شراً كلها بسبب تعاون حواء مع الشيطان فى إغراء آدم بالأكل من الشجرة المحرمة مما أدى إلى الوقوع فى الخطيئة الأولى التى أورثتها بنات جنسها وبذلك فقدوا اللذة تماماً عند قضاء شهوة الجنس لأنهم يشعرون بالإقدام على شر لا خير فيه عندما يقربون المرأة . أما الإسلام فهو يعلنها صراحة أن الوسوسة كانت لكل من آدم وحواء : « **فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة . . .** » .

(الأعراف ـــ ٢٠)

« **فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** » . (البقرة ٣٦)

وإذن فالرجل والمرأة متساويان فى الخير ، وهما إن أخطأ ثم تابا فإن الله يبدل سيئاتهم حسنات ويجعل مقياس الحكم عليها اتباع الهدى فيما بعد التوبة :

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . (البقرة ٣٧ – ٣٨)

و « . . . إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً » . (الفرقان ٧٠ – ٧١)

فالرجل المسلم حين يقبل على زوجته ليقضى وطره يشعر أنه مقبل على مخلوق نظيف ، لا يقل عنه فى المكانة والرفعة قيد أنمله ، يشاركه المتعة الجنسية ، فى تكافؤ ومحبة . أما غير المسلم فإنه يحس وهو يقبل على زوجته أنه مقبل على شيطان فاجر وأنه يرتكب شيئاً قذراً غير محبب خضوعاً لشهوة لا يملك منها فكاكاً .

والفرق فى الحالين بين فنى النكاح على شريعة الإسلام كمال اللذة وكمال الإحسان إلى الحبيبة ، وحصول الأجر ، وثواب الصدقة ، وفرح النفس ، وذهاب أفكارها الرديئة ، وخفة الروح ، وذهاب كثافتها وغلظها ، وخفة الجسم ، واعتدال المزاج ، وجلب الصحة ، ودفع المواد الرديئة ، فإن صادف ذلك وجهاً حسناً ، وخلقاً دمثاً ، وعشقاً وافراً ، ورغبة تامة واحتساباً للثواب . فتلك هى اللذة التى لا يعادلها شيء ولا سيما إذا وافقت كمالها ، فإنها لا تكمل حتى يأخذ كل جزء من البدن بقسطه من اللذة ، فتلتذ العين بالنظر إلى المحبوب والأذن بسماع كلامه ، والأنف بشم رائحته ، والفم بتقبيله ، واليد

بلمسه ، وتعكف كل جارحة على ما تطلبه من لذتها ، حتى الروح فإنها تهيم فى جو ربانى فرحة برضاء خالقها واحتساب هذه اللذة عنده ، ثقيلة فى الميزان ، وبذلك تتم النعمة وتصل المتعة إلى قمتها ، وصدق الرسول الكريم — عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم — فى أوصاف المرأة الصالحة : « إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته » .

قال ابن القيم : كل لذة أعانت على لذات الدار الآخرة ، فهى محبوبة مرضية لله رب العالمين فصانعها يلتذ بها من وجهين :

« من جهة تنعمه وقرة عينه بها ، ومن جهة إيصالها له إلى مرضاة ربه ، وإفضائها إلى لذة أكمل منها » . فهذه هى اللذة التى ينبغى للعاقل أن يسعى فى تحصيلها ، لا اللذة التى تعقبها غاية الألم ، وتفوت عليه أعظم اللذات .

وهذا ما يحدث عند أصحاب الديانات الأخرى الذين يخفضون من شأن المرأة ويعتبرونها شراً لابد منه ، ويعتبرون الزواج دنساً إلى حد إقدامهم على الخصى وترك الزواج ، أو التوسع فى الفحشاء فهى تستوى عندهم مع الزواج فى أن كلاهما دنس وشر .

أما عقيدة المؤمن فإنه يثاب على كل ما يلتذ به من المباحات إذا قصد بها العبادة والتوصل إلى لذة الآخرة ونعيمها والفرق الشاسع بين لذة صاحب الزوجة التى يحبها وقرت عينه بها ، فإنه إذا باشرها والتذ قلبه وبدنه بوصالها أثيب ونال الأجر من الله تبارك وتعالى لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « وفى بضع أحدكم أجر » وبين

صاحب الزوجة التى يعتقد أنه إذا باشرها فإنه يعاقب بحصوله على لذة محرمة مع مخلوق دنس ،هو إذا كان زوجاً،فما بالنا إذا لم يكن زوجاً وكان آثماً مرتين؟ تلك إذاً قمة العذاب والشقاء،وهو حال غير المؤمنين.

إن العبادة فى الإسلام ليست محصورة فى أعمال من الخشوع الخالص كالصلوات والصيام ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية لأن الغاية من حياتنا على العموم هى عبادة الله تعالى .

يقول الأستاذ محمد أسد : « يلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة فى مجموع مظاهرها كلها ، على أنها متعة أدبية متعددة النواحى . وهكذا يجب أن نأتى أعمالنا كلها (حتى التى تظهر تافهة) على أنها عبادات : أى نأتيها بوعى على أنها تؤلف جزءا من ذلك المنهاج العالمى الذى أبدعه الله . . » (الإسلام على مفترق الطرق — ط ٤ ص ٢٣) .

الاعتدال فى الجماع :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح ، فكأنما قرب بدنه ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » رواه الحافظ العراقى وغيره .

ومن هذا الحديث نفهم أن الحد الأدنى لعدد مرات الجماع لذى

الشباب هو مرة أسبوعياً ، وهو يختلف باختلاف الأشخاص والسن على أن لا يزيد على مرتين فى الأسبوع ما عدا شهر العسل طبعاً . وينبغى أن تقل بعد الستين من العمر ، وكما أن الكثرة تؤدى إلى الإضرار بالجسم وانهيار فى العقل وتعطيل عن العمل ، كذلك الندرة تسبب خمود الغريزة الجنسية وتعطيلها علاوة على حياة زوجية فاشلة ومهددة بالانقطاع .

والزوجة الحكيمة تستطيع بلباقتها وزينتها وإغرائها أن تحمل ميزان الاعتدال ، وتعمد إلى حفظ شبابها وشباب زوجها دون إفراط أو تفريط .

وليعلم ذو الدين والفهم أن المتعة إنما تكون بالقرب من الحبيب ، والقرب يحصل بالتقبيل والضم الذى يقوى المحبة ، والمحبة تحقق السعادة . أما الوطء من غير تودد وتعاطف فإنه ينقص المحبة ويعدم اللذة . وقد كان العرب يعشقون ولا يرون وطء المعشوق وقال قائلهم : إن نكح الحب فسد . أما اقتصار اللذة على نفس الوطء فشأن البهائم .

وإن النفس إذا عشقت شخصاً أحبت القرب منه فهى تؤثر الضم والمعانقة لأنها غاية فى القرب ، ثم تقبل الخد ، طلباً فى المزيد من القرب ، ثم تقبل الفم طلباً فى القرب من الروح فإذا طلبت النفس زيادة فى القرب استعملت الوطء حيث يحصل الالتذاذ الحسى يتداخل الأعضاء ، فإذا كانت قمة اللذة اختلط الماء بالماء ، وأثمر الوطء بإذن الله إنساناً جديداً تشترك فيه الصفات ، صفات الزوجين .

فالوطء إذن ليس إلا ارتفاعاً بالحب إلى أقصى درجاته ، وأعلا معانيه .

جرت محاورة بين أعرابى وحضرى عن الحب فقال الأعرابى : الحب مص الريق ولثم الشفة والأخذ من أطايب الحديث .

وقال الحضرى : الحب هو العفس الشديد ، والجمع بين الركبة والوريد ، ورهز يوقظ النائم ويشفى القلب الهائم .

فاستغرب الأعرابى وقال :
بالله ما يفعل هذا العدو الشديد ، فكيف الحبيب الودود ؟

يقول الأستاذ حسن الزيات فى رسالة « بين أدب النشوة وأدب اللذة » :

اللذة آنية لا استمرار فيها ، والنشوة دوام واستمرار . اللذة سطحية لاعمق لها فى المشاعر ، ولا امتداد فى الجملة العصبية أما النشوة فلها فى المشاعر أعماق ، ومع الجملة العصبية امتداد ودوام . اللذة انهزام أمام الغرائز ، واستسلام للأحاسيس ، والنشوة ظفر فى الشعور وانتصار فى المشاعر .

اللذة نسيان إنسانى وغفوة ضمير ، والنشوة حضور لكل ذلك ويقظة وخلود .

قال الإمام ابن القيم : إن الإكثار من الجماع يسقط القوة ويضر بالعصب ويحدث الرعشة والفالج والتشنج ، ويضعف البصر وسائر

القوى ويطفىء الحرارة الغريزية ويوسع المجارى ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية .

وأنفع أوقاته ما كان بعد انهضام الطعام فى المعدة ، وفى زمان معتدل ، لا على جوع فإنه يضعف الحار الغريزى ، ولا على شبع ، فإنه يوجب أمراضاً شديدة ، ولا على تعب ولا إثر حمام ولا استفراغ ، ولا انفعال نفسانى كالغم والحزن وشدة الفرح .

وأجود أوقاته بعد هزيع من الليل إذا صادف انهضام الطعام ثم يغتسل أو يتوضأ وينام عقبه ، فترجع إليه قواه ، وليحذر الحركة والرياضة عقبه ، فإنها مضرة جداً ، أو بعد صلاة الفجر ، ثم ينام قليلا وهو على وضوء .

ولنذكر قول الشاعر :

واحفظ منيك ما استطعت فإنه ماء الحياة يصب فى الأرحام

وقوله :

ثلاث هن من شرك الحمام وداعية الصحيح إلى السقام
دوام مدامة ، ودوام وطء وإدخال الطعام على الطعام

ففى التفريط مهلكة ، وخير الأمور أوسطها .

متى وأين يحرم الوطء ؟

١ ــ يحرم الوطء ما لم يكن على زواج شرعى ، فإنه زناً : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » . (الإسراء ــ ٣٢)

٢ – يحرم إتيان الزوجة إن كانت حائضاً أونفساء : « **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن(١) فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** » . (البقرة – ٢٢٢)

٣ – يحرم الوطء فى دبر الزوجة فقد جاء فى الحديث الصحيح : « من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما نزل على محمد » رواه أبو داود والنسائى والترمذى والحاكم وابن ماجه .

٤ – يحرم الوطء على الصائم حتى يفطر وعلى الحاج حتى يتحلل التحلل الثانى ، لأنه يفسد الصيام والحج فى هذه الأوقات .

٥ – يحرم الوطء فى المساجد : « **... ولاتباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد . . .** » . (البقرة – ١٨٧)

* * *

---

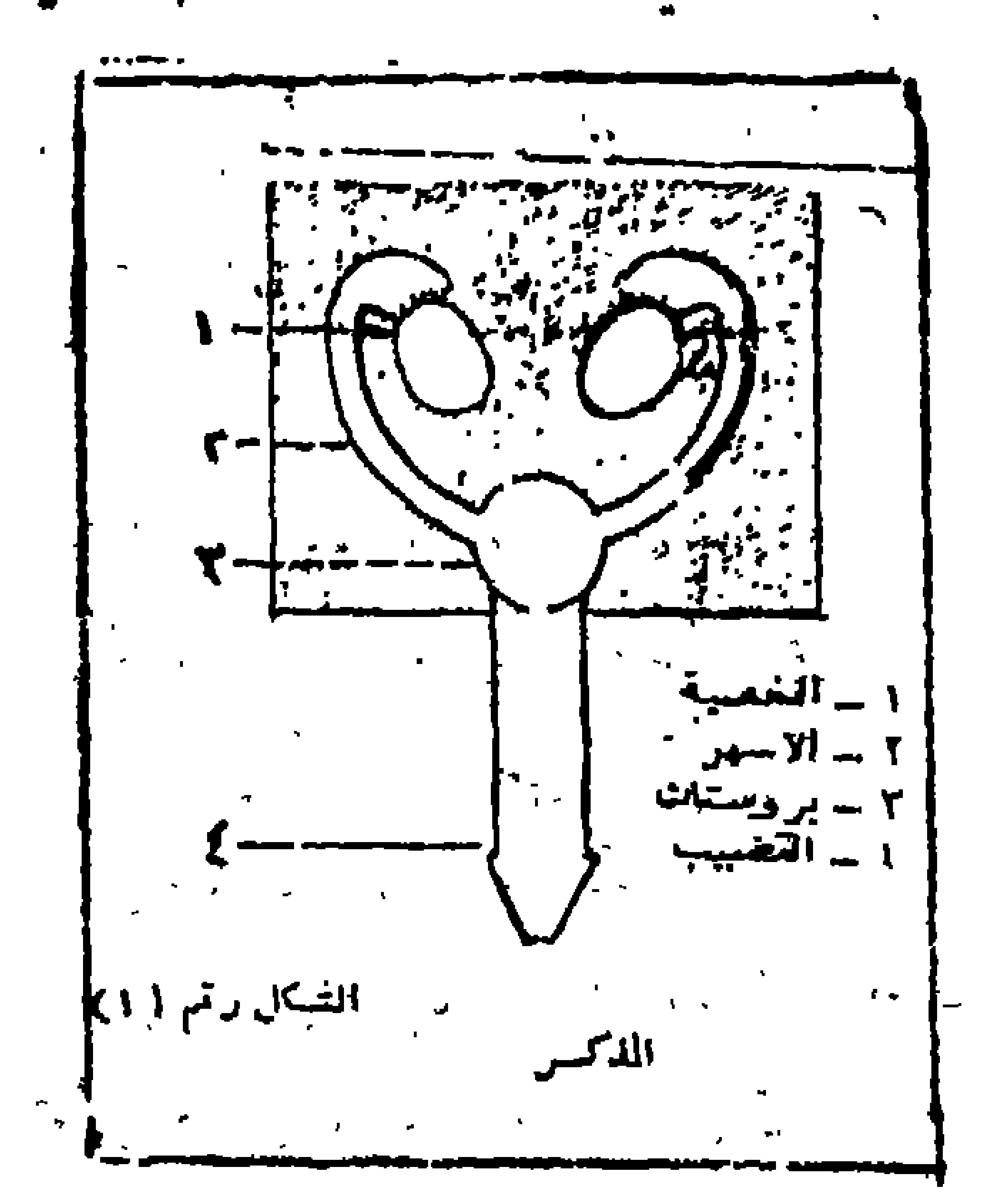
(١) يطهرن بانقطاع الحيض فإذا اغتسلن (تطهرن) فأتوهن . .

الفصل الثامن

أعضاء التذكير والتأنيث فى الإنسان

عضو التناسل عند الذكر هو القضيب وهو يتكون من مجموعة من العضلات ترتخى فى حالة الهدوء الجنسى فيبدو طرياً كقطعة اللحم وتنتصب فى حالة الرغبة الجنسية فيبدو قوياً كالقضيب ، ومن هنا أخذ اسم القضيب (شكل رقم ١) ويوجد بطول القضيب وفى منتصفه تماماً مجرى كالأنبوبة يمر فيه السائل التناسلى (المنى) من الذكر إلى الأنثى عند قمة الإثارة الجنسية .

وتعتبر الخصيتين المعمل الذى يولد الحيوانات المنوية اللازمة للإخصاب وهما غدتان صغيرتان تبدءان فى حجم البليتين قبل المراهقة



الشكل رقم (١)
الذكر

ثم يكبر حجمهما تدريجياً إلى حجم الليمونتين بعد البلوغ ، ويضمهما غشاء لين على شكل كيس أسفل القضيب (شكل رقم ٢) :



الشكل رقم (٢)
مقطع طولاني لقضيب الذكر وخصيتيه.

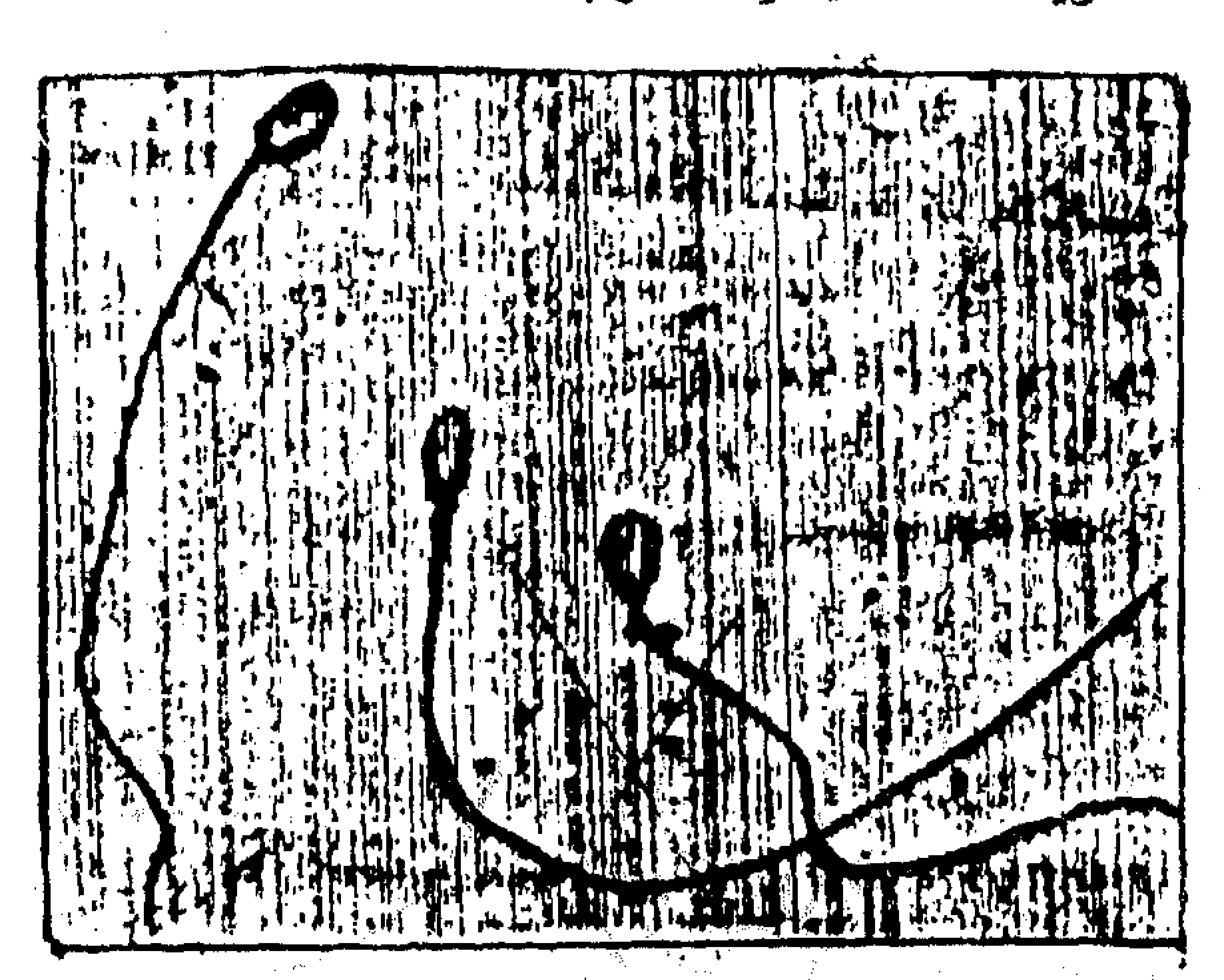
والمنى سائل أبيض ذو رائحة خاصة ، تعيش فيه الحيوانات المنوية التى يلزم أن يتحد واحد منها بالبويضة فى رحم المرأة ليحدث الإخصاب .

والحيوان المنوى الكامل التركيب يتكون من رأس يبلغ طولها حوالى ٥ ميكرون ، ومن ذيل يبلغ طوله حوالى ٥٠ ميكرون — (الميكرون ١٠ ــ ٣ ملليمتر) . وعلى الرغم من أن ما يلزم للإخصاب هو حيوان منوى واحد ، فقد خلق الله فى منى الإنسان أعداد هائلة من الحيوانات المنوية ، يبلغ عددها فى المرة الواحدة لمن بلغ الحلم أى من الثالثة عشر فما فوق عدداً يتراوح بين ٤٠٠ ــ ٥٠٠ مليون

حيواناً منوياً وذلك بمعدل ١٠٠ مليون حيوان منوى فى السنتيمتر المكعب من السائل المنوى :

ولكنْ هناك نسبة من الذكور تنعدم فى سائلهم المنوى الحيوانات المنوية أو تنقص إلى حد كبير . والأشخاص الذين يمارسون العادات الجنسية غير السوية هم أكثر عرضة من الأشخاص الطبيعيين للنقص فى الحيوانات المنوية أو اقتنائها من فيهم ، وهؤلاء تقل عندهم فرص الإنجاب أوتنعدم تماماً تبعاً لوجود أوانعدام الحيوانات المنوية فى منيهم .

وعلى الرغم من أن عدد الحيو نات المنوية للإنسان الطبيعى تعد بمئات الملايين فى عملية القذف الواحدة إلا أن حيواناً واحداً فقط من هذه الملايين هو الذى يقدر له دخول رحم الأنثى إذا ما اقتضت مشيئة الله الإخصاب فى هذه المرة ويبين الشكل رقم (٣)(*) صورة للحيوانات المنوية تحت الميكروسكوب .



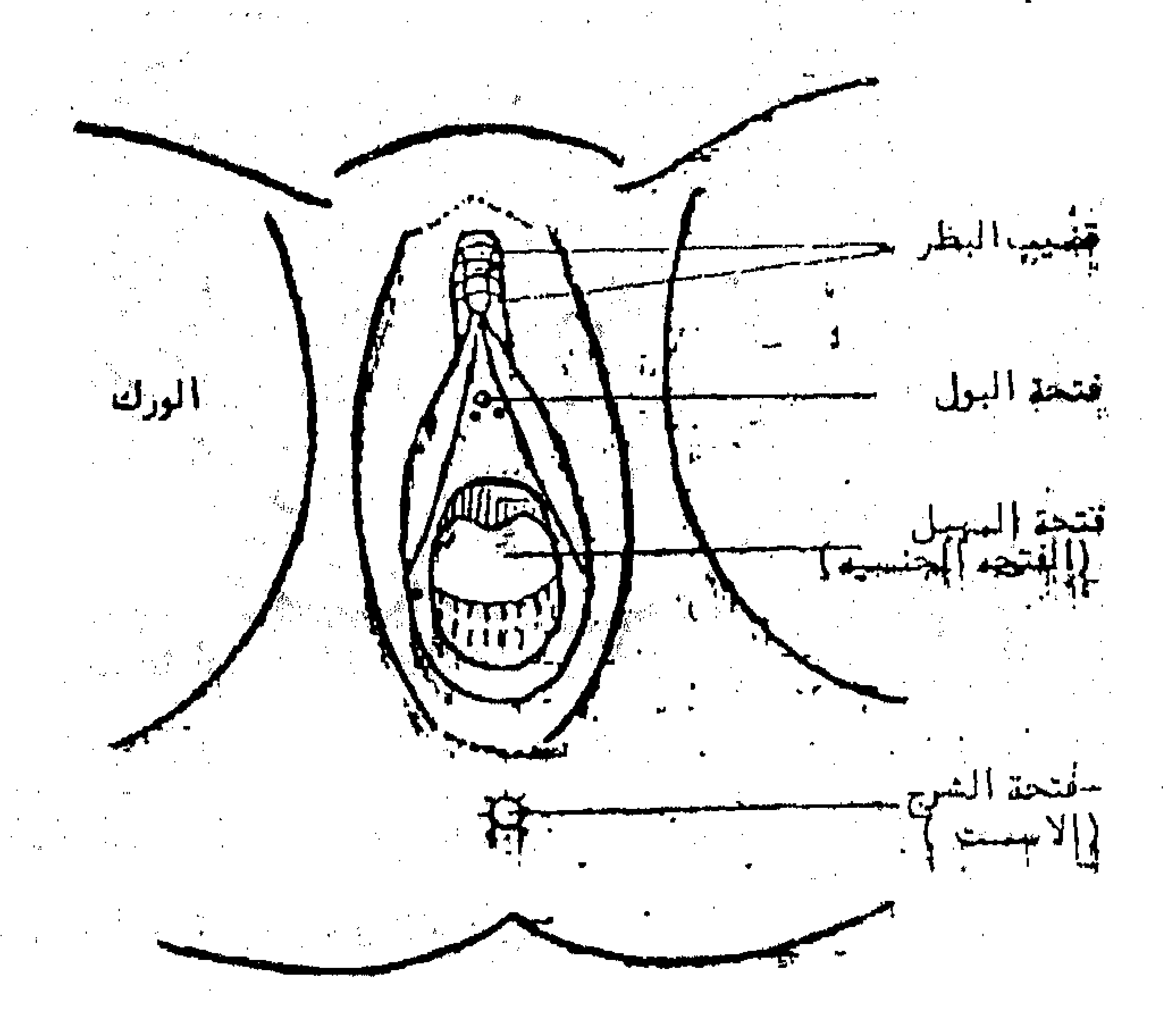
شكل رقم (٣) الحيوانات المنوية عند الرجال تحت الميكروسكوب (١)

(*) كتاب الطب الشرعى للدكتور صلاح مكارم وآخرين ص ٤٩٦ .

أما عضو التأنيث عند المرأة فيقع بين الوركين ويتركب من :
١ ـ البظر : وهو يعلو فتحة البول ، وهذا العضو يعادل القضيب عند الرجل ، وهو عضو غني بالأعصاب ، وله شبكة دقيقة من الأوعية الدموية الدقيقة إذا أثيرت باللمس أو التهيج الجنسي امتلأت بالدم وانتفخ البظر .

والبظر نقطة مركزية لإثارة المرأة من الناحية الجنسية ووصولها إلى رعشة الجماع ، فهو زناد الارتعاش عند المرأة . ولذلك فإن من فنون المداعبة الجنسية أن يسبق عملية الجماع مداعبة البظر بلطف لأن هذا العضو حساس جداً إلى حد لا يكاد يصدقه عقل ، فإذا ما أثيرت المرأة بمداعبة البظر يبدأ الرجل الإيلاج ليضمن أن تستكمل المرأة لذتها الجنسية معه أو قبله خاصة إذا كان من الذين يقذفون سريعاً ، ففي ملاعبة البظر قبل الجماع خير وسيلة لبلوغ اللذة الجنسية قمتها بين الطرفين في وقت واحد .

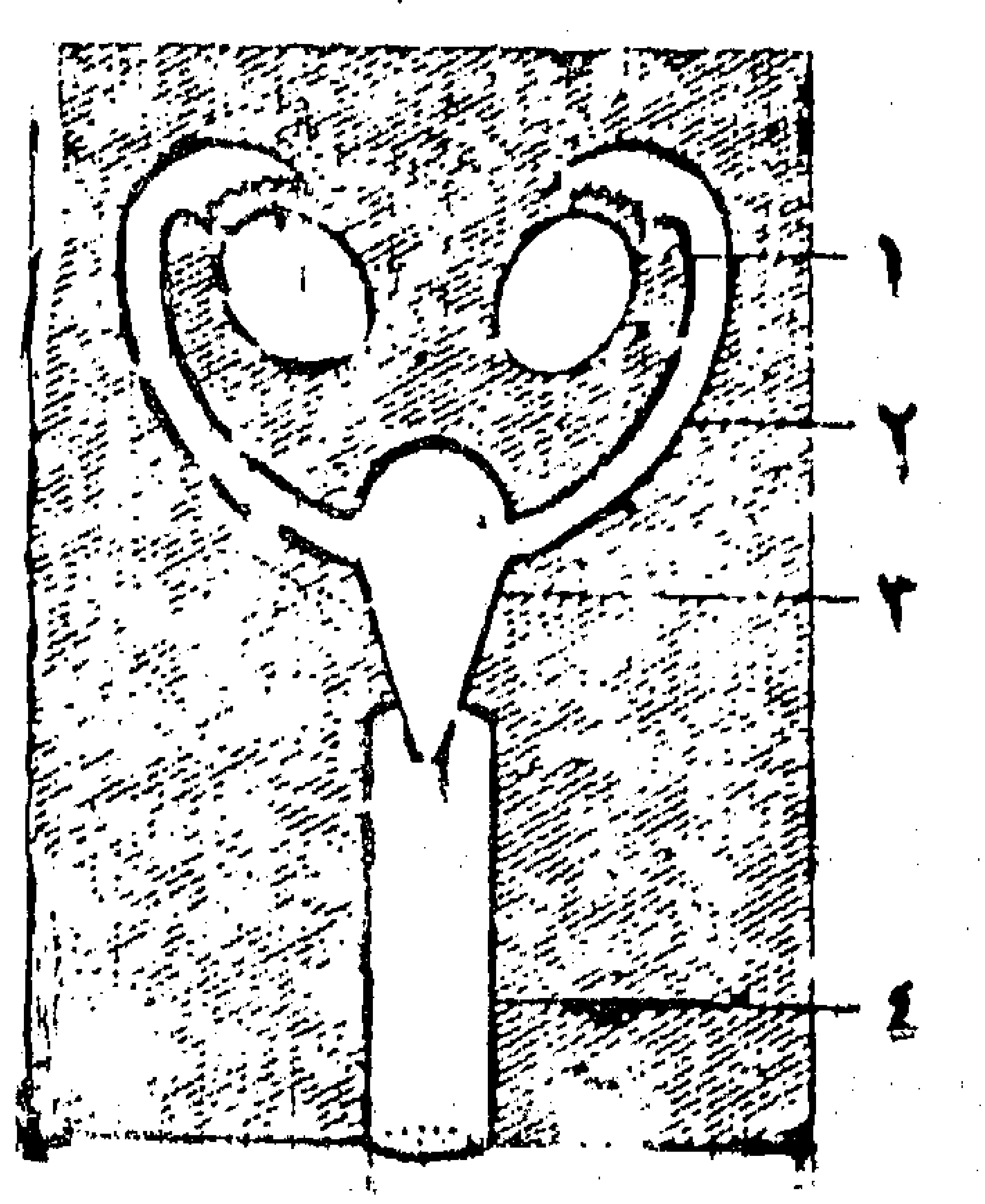
إن معظم النساء الطبيعيات يرحبن بمداعبة البظر قبل الجماع ،



وقد يكون من المستحب استئناف مداعبة البظر بعد الجماع لاستكمال اللذة عند المرأة إذا ما سبق الرجل وقذف قبلها .

٢ — الشفرين الكبيرين ثم الشفرين الصغيرين وبينهما فتحة المهبل وهى الفتحة الجنسية .

أما فتحة البول فتقع أعلا فتحة المهبل شكل رقم (٤ أ، ب) .



١ — المبيض .
٢ — النفير .
٣ — الرحم .
٤ — المهبل .
(الأعضاء الجنسية الداخلية داخل المرأة)

شكل رقم (٤)

العنة والعقم عند الرجال والنساء :

« العنة » هى عدم القدرة على الجماع . . ويقال للمصاب بها : عنين . . وهى ليست قاصرة على الذكور فقد تصاب بها الإناث بالرغم من دورهن السلبى فى الجماع .

وهناك فرق بين العنة والعقم . . فالعقم يعنى عدم القدرة على الإخصاب رغم وجود القدرة الطبيعية على الجماع .

وقد يكون الشخص عنيناً وليس عقيماً ، وهذا الصنف يمكن أن ينجب طالما أنه قادر على قذف المنى ، وكان منيه صالحاً للإنجاب ، بما يحتويه من حيوانات منوية ، ولو كان القذف خارج الأنثى فقد

يستطيع أحد الحيوانات المنوية العديدة الوصول إلى رحم الأنثى حيث تتم عملية الإخصاب .

وقد يكون الشخص عقيماً وليس عنيناً ، وهذا الصنف يكون قادراً على الجماع بشكل عادى ، ولكنه غير قادر على الإنجاب لخلو منيه من الحيوانات المنوية أو لقلتها .

أسباب العنة عند الرجال :

إن السبب الذى يدخل فى موضوع هذا الكتاب ، هو العنة النفسية فقد يكون الرجل قادراً على الجماع بشكل عادى ولكنه يصاب بعنة نفسية لسبب أو أكثر من الأسباب الآتية :

١ ــ كراهية الطرف الآخر .

٢ ــ رؤية منظر مهبط نفسياً أو اشتمام رائحة بالذات يكون لهما أثرها فى تهبيط الرغبة الجنسية .

٣ ــ عنة نفسية قبل أنثى معينة بالذات مع الشعور بنشاط جنسى عادى مع غيرها .

٤ ــ عنة نفسية قبل جميع النساء إلا أنثى معينة ، فهو لا يشعر برغبة جنسية إلا قبل هذه الأنثى بالذات دون سواها من النساء ، وقد أصابت هذه العنة ملكاً من ملوك بريطانيا فلم يشعر برغبة جنسية سوى قبل سيدة متزوجة ، فأوعز إليها بالطلاق من زوجها ليتزوج بها ، ولما طلقت فضل الزواج بها على ملك بريطانيا ، فتنازل عن هذا الملك ليتزوج من السيدة التى وجد معها المتعة التى كان محروماً

منها . . ولا شك أن الأزواج الذين يعون المعانى التى جاءت فى هذا الكتاب ويطبقونها فى حياتهم الزوجية يتمتعون باشتعال أوزار الحب بينهم ويضمنون استمراره . . ومن ثم فإنهم لا يصابون بعنة نفسية . . فالزوجان المسلمان قادران دائماً على التغلب على العنة النفسية إذا ما تحابا وتعاونا على الابتعاد عن أسبابها .

أما باقى الأسباب الأخرى للعنة عند الرجال فهى لا تقع ضمن اختصاص هذا الكتاب لأنها أسباب مرضية يكون الرجوع فيها إلى المختصين من الأطباء .

أسباب العنة عند النساء :

لا تكون العنة عند النساء إلا لأسباب مرضية ، لا تدخل ضمن اختصاص هذا الكتاب ويكون الرجوع فيها أيضاً إلى المختصين من الأطباء .

أسباب العقم عند الرجال :

يقذف الإنسان العادى فى كل مرة ما يتراوح بين ٤٠٠–٥٠٠ مليون حيواناً منوياً ولكن حيواناً منوياً واحداً من هذا العدد الكبير هو الذى يقوم بإخصاب بويضة الأنثى عند الحمل ويمكننا حصر العوامل المؤثرة على عدد ونوعية الحيوانات المنوية مما يؤدى إلى قصورها عن الإخصاب على النحو التالى :

١ – أسباب خلقية : كأن تكون الحيوانات المنوية ميتة خلقياً ،

٢ – بعض الأمراض كالتهابات الخصيتين والتهاب الغدة النكفية .

٣ – الظروف المحيطة بحياة الإنسان . . كسوء التغذية وبعض أنواع العقاقير والكيماويات والتعرض للإشعاعات .

٤ – اختلال الغـدد الصماء .

٥ – انسداد بقنوات تصريف المنى لأسـباب خلقية أو التهابية أو إصـابية .

أسباب العقم عند النساء :

يرجع العقم بالنساء إلى عدم إفراز مبايضها للبويضة اللازمة – للإخصاب أو عدم تهيئة الظروف المناسبة داخل الرحم للارتباط بين البويضة والحيوان المنوى لتكوين جنين بإذن الله . . ويرجع العقم عند المرأة لأحد الأسباب الآتية :

١ – الالتهابات المهبلية وهذا السبب لا يؤدى إلى العقم المستمر فهو قابل للعلاج .

٢ – انسداد عنق الرحم الذي يحول دون وصول الحيوانات المنوية إلى الرحم وبالتالى يحول دون إخصاب البويضة .

٣ – التهابات بعنق الرحم وتحدث هذه الالتهابات لأسباب هرمونية لأنها تؤدى إلى نقص الإفرازات المـائية التى تفرزها الغدد الموجودة بعنق الرحم واللازمة لحماية الحيوانات المنوية عند وصولها إلى هذا الموضع وتسهيل تحريكها .

٤ – الكى الذى يجرى لعلاج قرحة بعنق الرحم قد يؤدى إلى إتلاف الغدد التى تفرز هذه الإفرازات ؛

٥ – انسداد قنوات فالوبى الموصلة بين الرحم والمبيضين يحول دون وصول البويضات إلى الرحم لتلقيحها .

٦ – أسباب نفسية فقد يكون للعوامل العاطفية دخل فى التبويض .

علامات الحمل :

العلامات الأكيدة للحمل ثلاث علامات :

١ – سماع صوت قلب الجنين بالمسماع الطبى الخاص بذلك .

٢ – الإحساس بأعضاء جنين .

٣ – رؤية الجنين يتحرك داخل الرحم بالفحوص الإشعاعية (الفحص التليفزيونى) . وهناك علامات غير مؤكدة للحمل كانقطاع الطمث وكبر حجم الثديين وظهور الكلف بالوجه وانتفاخ البطن وبعض الأعراض الغريبة كالغثيان والقىء المتكرر والميل إلى النوم وتغيرات بالفرج كاحتقان جدار المهبل مع لون بنفسجى مائل للاحمرار وليونة بعنق الرحم وإفرازات كثيرة ولكن كل هذه العلامات وإن أعطت مؤشراً للحمل إلا أنها لا تعتبر أكيدة قبل التحقق بواحدة من العلامات الثلاث الأكيدة المذكورة .

مدة الحمل :

فترة الحمل الطبيعية هى عشرة أشهر قمرية أى ٢٨٠ يوماً وهو ما يعادل تسعة أشهر ميلادية تقريباً .

وقد تطول فترة الحمل عن هذه المدة وقد تقصر تبعاً لطول دورة الطمث وقصرها والطريقة المثلى لحساب مدة الحمل هي إضافة أربعين أسبوعاً من تاريخ بداية آخر طمث سابق للحمل وذلك لأنه من الممكن أن يحدث الجماع قبل بداية آخر طمث بيوم أو بيومين ، ويتم الإخصاب خلال فترة الطمث لأن الحيوانات المنوية تبقى حية داخل الرحم لمدة قد تصل إلى يومين وتعتبر أكثر الفترات مناسبة لحدوث الحمل هي ما بين اليوم الثاني عشر واليوم السابع عشر من بداية الطمث .

وليس هناك ما يتعارض من الوجهة الطبية مع قصر مدة الحمل إلى ستة أشهر وزيادتها إلى سنة .

والمعروف أن إمكانية الحمل تحدث عندما تحيض الفتاة إلا أنه قد سجلت بعض الحالات التي حدث فيها حمل قبل بدء الطمث . وقد ذكر جليستر في مرجعه أن أصغر أم سجلت حالة ولادة كانت تبلغ من العمر خمس سنوات وثمانية أشهر واسمها « لينا مدنا » .

كما أن المعروف عدم إمكانية الحمل بعد انقطاع الطمث نهائياً وهو سن اليأس ولكن هناك حالات سجلت حدث فيها الحمل بعد هذه السن وكانت أكبر سن مسجلة حملت فيها أنثى هو خمسون سنة وسبعة أشهر رغم أن سن اليأس يكون عادة في الخامسة والأربعين من عمر الأنثى .

* * *

الفصل التاسع

الحب الإلهى والعوامل المؤثرة فيه

الحب الإلهى هو الشعور بالرغبة فى التقارب من المحبوب ، وعدم الاستغناء عنه بحال من الأحوال ، لأسباب إلهية لا دخل للمخلوقات فيها

ويتولد الحب الإلهى بين الجنسين لأسباب جسمية من صنع الله الذى خلقها لتكون قوة ملزمة لتأكيد صفته فى التوسع فى الخلق ، كما سبق أن أوضحنا فى الفصل الأول فى شرح قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » . (الذاريات — ٤٧)

الغدد التناسلية ودورها فى الحب الإلهى حتى سن اليأس عند النساء :

يبدأ الإحساس بالحب عند الرجال والنساء بفعل الإفرازات الداخلية للغدد التناسلية وتنتج هذه الغدد مواد كيميائية خاصة يمتصها الدم بانتظام فى أثناء دورته خلالا لجسم وتستطيع هذه المواد أن تؤثر تأثيراً قوياً فى الجسم كله أو فى أجزائه .

فإفرازات الغدد التناسلية لها قيمة عظمى فى تحديد العلاقات والمميزات والصفات والأعمال الحسية للرجال والنساء .

والإفرازات الداخلية للمبيض تطبع جسم المرأة البالغة والمراهقة

بالعلامات النسوية المميزة وكذلك تؤثر الخصية فى الذكور البالغين تأثيراً عكسياً ، فتنمى إفرازاتها الداخلية علامات الرجولة فى الرجال . وهذا التمايز الذى تخلقه الغدد التناسلية هو الخطوات الأولى نحو الحب الإلهى فكما أن القطبين المختلفين مغناطيسياً يتجاذبان ، فإن اختلاف مظاهر الرجولة والأنوثة يحدث التجاذب بين الرجال كجنس والنساء كجنس آخر .

فالمرأة يروقها كرم الرجل وشجاعته وسخاؤه ، وتثير فيها هذه الصفات دافع الاقتراب ولكن اللؤم والجبن يقتلان هذا الدافع عند المرأة وينفرانها من الرجل ، وصدقت أم المؤمنين خديجة — رضى الله عنها — فى وصف سيد الخلق — صلى الله عليه وسلم — حين عاد إليها من غار حراء عقب نزول الوحى عليه أول مرة .

كلا : والله ما يخزيك الله أبداً . . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق معبرة بذلك عن بعض أسباب حبها له وإعجابها به صلى الله عليه وسلم .

والرجل تجذبه الوداعة والترفع عند النساء ، بينما العكس يثير اشمئزازه ونفوره منهن . وتقوم الغدد التناسلية بتنمية الصفات المستحسنة فى الرجال عند النساء والصفات المستحسنة فى النساء عند الرجال على نحو فطرى بادئ ذى بدء ، فإذا اكتمل نضج الرجال والنساء أصبح عليهم تنمية هذه الصفات والتحلى بها كل فيما هو حسن له ، حتى يستمر مرغوباً من الطرف الآخر ومحبباً إليه ، وحينئذ يقل دور الغدد التناسلية

فى تنمية هذه الصفات ، ثم ينتهى هذا الدور بعد سن اليأس عند النساء وهو غالباً حول الخامسة والأربعين .

دور الثقافة والفكر فى الحب :

ينمو دور الثقافة والفكر والوعى فى الحب بعد استكمال نضج الرجال والنساء بفعل الغدد التناسلية حتى إذا أخذ نشاط هذه الغدد فى الضعف حل محلها دور الثقافة والفكر إلى أن يصبح هو الدور السائد بعد انتهاء دور الغدد التناسلية . فالمتعة الجنسية للمرأة لا تنتهى ببلوغها سن اليأس ، ولكن الذى ينتهى هو دور الغدد التناسلية وحده ، وهو أمر عديم الأهمية بما دام عند المرأة من ثقافتها وفكرها ووعيها ما يجذب الرجل إليها ، ويضاعف من صفاتها المستحسنة عنده ، فتكون الحياة الزوجية والجنسية أكثر متعة وأوفى لذة ، لانقطاع الطمث ، وانعدام المانع من اللقاء الجنسى فى أيامه العديدة .

المظاهر الطبيعية المؤثرة فى الحب :

هناك عوامل أخرى تقوى الإحساس بالحب عند الرجال ، والنساء منها :

١ ـ المظاهر الطبيعية التى تحدث الخوف والقلق ، لأنها تثير التهيج الجنسى الشديد عند المرأة والرجل على حد سواء ، ويرجع ذلك إلى رغبة المرأة فى هذه الظروف فى الحماية والتماس الرفيق الذى يعينها على هذه الشدائد والمخاطر ، كما أنها تدفع عاطفة الرجل نحو

المرأة ذلك المخلوق الرقيق ، فيعمل على حمايتها والقرب منها فى هذه الظروف .

ولا شك أن هذه الحماية الممنوحة والمطلوبة تثير دوافع الاقتراب والتجاذب بين الرجال والنساء .

٢ ــ لحاستى التذوق بالفم والشم بالأنف اتصال كبير بالمشاعر الحسية لأن المشاركة فى الطعام بين الرجل وزوجته يولد متعة مشتركة لكليهما ، فالرجل يتمتع بما يتذوق من إنتاج يد الزوجة طعاماً شهياً لذة للآكلين ، والمرأة تتمتع بثناء الرجل على إبداعها وتفوقها فى إعداد الطعام ، ومن هذا الواقع كان القول المشهور : « المعدة هى السبيل إلى قلب الرجل » .

ولا شك أن الرجل يسعى لكسب العيش خارج المنزل فيكد ويكدح ، وإنما يسعده أعظم السعادة أن يجد عند عودته إلى المنزل لذة فى المأكل والمشرب ، مما يشده إلى المنزل ويجذبه إليه دائماً ليجد السكن والمتعة والمودة والرحمة : **« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . . . » .**
(الروم ــ ٢١)

ولا تقتصر حاسة التذوق فى أثرها على الحب على تذوق الطعام فقد ثبت أن بعض إفرازات المحبوب كاللعاب ، قد تثير الرغبة الجنسية فيه ، بمذاقها الرقيق ، فيجب أن يرتشف من لعاب حبيبته ارتشافاً كأنه رحيق الزهر .

أما حاسة الشم فلها قيمة هامة وكبيرة فى ربط الشعور الحسى بين

الزوجين ، فإذا حرص كل من الزوجين ألا يشم الآخر منه إلا رائحة طيبة ، كان ذلك أدعى إلى تقوية دواعى الحب بينهما .

فالروائح الحلوة حين تنفث بمقدار كاف وبطريقة رقيقة ، لن تروق حاسة الشم وحدها ، بل إنها تؤثر تأثيراً منبهاً فى الجهاز العصبى المركزى ، مما يزيد الاستجابة والحيوية عند الرجال والنساء . وهناك روائح مثالية للذكور وأخرى للإناث .

والرائحة المثالية للذكور هى المسك الذى تفرزه غدد الذكور البالغة من غزلان المسك التى تجاور أعضاءها الجنسية ، ويتحسن مقدار المسك ونوعه فى الربيع حين يعجز الحيوان عن الحركة . ويستعمل العطارون المسك بعد تخفيفه ومزجه بروائح أخرى للحصول على الروائح الذكرية المثالية التى تنبه الأعضاء الجنسية النسوية وتهيجها .

أما الروائح النسوية فتنسجم مع طراوة المرأة المثالية ووداعتها ، وتتفق مع أريجها الفواح الذى يجذب الرجل ويهيجه . ولهذا السبب حرمت الشريعة الإسلامية على النساء التعطر عند الخروج من بيوتهن حتى لا يكن فتنة للأجانب من الرجال .

عن موسى بن يسار رضى الله عنه قال : مرت بأبى هريرة امرأة وريحها تعصف ، فقال لها : أين تريدين يا أمة الجبار ؟ قالت : إلى المسجد . قال : وتطيبت ؟ قالت : نعم . قال : فارجعى فاغتسلى فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يقبل الله صلاة من امرأة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع فتغتسل »

رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، ورواه أبو داود وابن ماجه ، وإنما أمر بالاغتسال لإذهاب رائحتها .

٣ — لحاستى السمع والبصر أثرهما الكبير على عواطف الرجال والنساء على السواء ، فما أعذب صوت المرأة حين تنطق . . إنها تنفث سحراً . . فالعروس لا يفوته الاستمتاع بصوت عروسه الذى يثير الناحية الجنسية فيه إثارة قوية فتهيج الرغبة وتستيقظ الشهية بدرجة قوية لا تصدق لمجرد سماع صوت جرس العروس ، وتنغيم كلمة واحدة قد لا يكون لها معنى أو ملابسات . ولهذا كان صوت المرأة عورة على الرجل الأجنبى إذا كان فيه خضوع وترخيم وترقيق . ولقد نهى القرآن الكريم النساء أن يخضعن باللين من القول الصادر فى نبرات نسائية تثير شهوات الرجال الأجانب وتهييج غرائزهم ، لما لهذا الصوت من أثر بالغ على العواطف .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « . . . **فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض . . .** » . (الأحزاب — ٣٢)

أما النظر فهو لغة الحب الحلال بين المحبين ، ولعل أقوى المشاعر الحسية التى تلقاها عين الإنسان هى التى تنتقل إليها عن طريق العيون الأخرى .. إنها النظرات الساحرة المحملة بالمعانى والمشاعر والرغبة فى بناء الأسرة السعيدة .

ولا شك أن الحب يشرق بالنظرة أكثر مما يشرق بغيرها ، فكثيراً ما تلتقى الأرواح وتتصل بشرر ضئيل تومض به العين فى أى لحظة . ولهذا كثر الحديث عن لغة العيون وعن قوة النظرة وتأثيرها فى الحب

ولهذا أيضاً حرمت الشريعة الإسلامية النظرة إلى الأجنبي أو الأجنبية إلا النظرة الأولى(١) . ووضعت هذا التحريم جنباً إلى جنب مع تحريم الزنا . قال تعالى : « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** » . (النور ٣٠ – ٣١)

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن رب العزة : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها من مخافتي أبدلته بها إيماناً يجد حلاوته في قلبه » .

حكمة الزي الإسلامي :

إن هذا الشرع الحكيم الذي أحل النكاح وحرم الزنا ، قد شرع للناس ما يحميهم من الزنا ويحببهم في النكاح فحرم تطيب المرأة وجرس

---

(١) وهي النظرة العابرة فإن دامت كانت الثانية المحرمة .. ولهذا كانت له الأولى وعليه الثانية . والأولى هي العفوية فإن طالت لحظة فهي الثانية المحرمة .. يراجع كتاب ولماذا أكون مسلماً ؟ ففيه تفصيل مفيد .

صوتها الرقيق والنظر إلى وجهها إلا النظرة الأولى على الرجال الأجانب لما لذلك كله من أثر فاتن قد يغرى بهم لارتكاب جريمة الزنا ولكنه أحل ذلك كله وأكثر منه للأزواج ترغيباً فى النكاح وبناء الأسرة السعيدة ، وفقاً لشريعة الرحمن وسنة رسوله الكريم – عليه الصلاة والسلام .

كما فرض على النساء إذا خرجن لتحصيل العلم أو لكسب الرزق ألا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ومحارمهن وغير ذوى الإربة من الرجال والطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن واعتبر ما سبق من مثل هذه الأعمال ذنوباً مضيعة لأسباب النجاح والفلاح ، فختم هذه الفرائض بقوله تعالى :
« . . . **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** » .
(سورة النور ٣٠ – ٣١) المذكورة أعلاه .

بل وأمر النساء إذا خرجن أن يدنين عليهن من جلابيبهن ليعلم طهرهن فلا يؤذين بغمز أو لمز أو إشارة ، فيعم الأدب والحياء فى المجتمع المسلم ، وترتفع راية العفة والفضيلة فى كل مكان توجد فيه المرأة المسلمة .

قال تعالى : « **يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً** » . (الأحزاب – ٥٩)

ولقد حدد العلماء الزى الإسلامى للمرأة فى كلمتين « ما لا يشف ولا يصف ، ولا يظهر منه إلا الوجه والكفان عند الضرورة » .

ومن الضرورات التى تفرض ظهور الوجه والكفين الإحرام بالحج أو العمرة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إحرام المرأة فى وجهها وكفيها » .

ودليل إباحة ظهور الوجه والكفين فى غير الإحرام قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أسماء(*) إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه » .

ويرى العلماء أن هذه الرخصة بكشف الوجه والكفين ، لا تستخدم إلا عند الضرورة ، أما إذا كان فى كشفهما إثارة للفتنة فسترهما أولى حفاظاً على سلامة المجتمع ، وشرف المرأة .. ولا شك أن احتشام المرأة عند خروجها من منزلها هو أحد العوامل الهامة التى تحبب الرجال فيها ، لأنه من علامات الوداعة والترفع عند النساء ، فالرجال ينجذبون إلى المرأة التى يطمئنون لدينها حفاظاً على شرفهم وأعراضهم ، وكل ممنوع مرغوب .

الطريق إلى الحب الإلهى :

لقد جعلت الشريعة الإسلامية الطريق إلى الحب الإلهى سهلا ممهداً بالزواج ، وذلك لأنها حرمت الاستمتاع بشىء ، مما يحبب الرجال فى النساء عن غير هذا الطريق الكريم .

أما فى ظل الزواج فقد أباحت الشريعة الإسلامية للزوجين الاستمتاع حلالا ، بالقرب من الحبيب ، والقرب يحصل بالضم والمعانقة ، فإن طلبت النفس المزيد ، كان تقبيل الخدود ، وإن طلبت

(*) بنت الصديق — رضى الله عنها .

القرب من الروح كان تقبيل الفم ، وإن طلبت غاية التلذذ الجنسى كان تداخل الأعضاء حلالا خالياً من أى شعور بالإثم أو الغدر أو الخيانة ، بل مكللا بأريج العبادة والمحبة لله المنعم المتفضل ، بما خلق للإنسان من نعم .

وفى ظل الزواج ينعم الزوجان بالمشاركة فى الطعام والشراب فى جو شاعرى ، يستمتع فيه الرجل من زوجته بريح طيبها ، وشجى عطرها ، وتشنف آذانه عذوبة صوتها ، ويتمتع نظره بمفاتن جسمها حلالا زلالا خالياً من كل رجس أو سوء .

وهذه المتع جميعاً هى مقومات الحب ودوافعه التى يهيئها الزواج من ذات الدين التى ارتضتها نفس الزوج فأقبل على طلب يدها ، ملتزماً بشريعة الله ومنفذاً لسنة رسوله الكريم ، ليحيا حياة كلها حب وسعادة واطمئنان .

أما ما يروج له أعوان الشيطان من الحب الحرام قبل الزواج ، فإنه الطريق إلى الزنا ، حيث لا صلة بينه وبين الحب الإلهى على الإطلاق . إنه خدعة واستسلام لإبليس ، وضياع واستهتار بالمرأة فكيف يمكن أن يحب المرأة من يبدأ بالعبث بشرفها ؟ إنه لا يحب إلا نفسه ، أما ادعاؤه حبها فهو كوضع السم فى الدسم .

إنه يريد أن يستمتع بها حراماً ثم يضيعها من أهلها وعشيرتها ، ويفسد عليها صحبتها فكلهم سيرون فى انتمائها إليهم عاراً وشناراً .

إنه لص يسرقها ، باسم الحب ، وكاذب أستاذ فى الكذب ،

يعلمها أول ما يعلمها الكذب على والديها وأهلها فى كل خطوة تخطوها معه ، فهى تحس أنها خطوات حرام لا يدفعها إليها إلا توهمها بأنها قد تقودها إلى الزواج الحلال ، فلا تجرؤ على البوح بها إلى أن يتم الزواج ، وتضطر إلى سترها بالكذب والخداع .

ولكن الرجال على عكس هذا الظن الخاطئ فهم يعجبون بالترفع عند النساء ، ولا يطمئنون إلى امرأة سلمت نفسها إليهم بالخطيئة والحرام ، لأن ذلك دليلهم على أنها لا يمكن أن تحفظ نفسها بعد الزواج . وهل من ديوث يقبل لنفسه أن يتزوج من زانية؟ إنه يستمتع معها كالحيوان دون أن يدخل فى قلبه ذرة من حب ، وهل يمكن أن يكون من يسرقنى حبيباً ؟ هل يمكن أن يكون من يضللنى حبيباً ؟ إنه حبيب نفسه ، يريد أن يتفاخر أمام الغير ، بأنه معشوق النساء ، الذى لا يقهر ، ولا يستحى أن يكشف ما يرتكبه من آثام مع من أغلقت عقلها على كل أصحابه وأقرانه مدعياً لهم ببطولة زائفة ، بينما هى لا تستطيع أن تذكر شيئاً من ذلك إلى أقرب الناس إليهـا خشية أو حياء .

إن الطريق إلى الحب الإلهى هو الزواج ولا يمكن أن يكون الحب المبيح للمحرمات الكاشف للعورات طريقاً للزواج بحال من الأحوال . إن حالات الزواج النادرة التى قد تتبع مثل هذا الحب تحت ظروف شاذة ، لا يمكن أن تكون زيجات سعيدة وستظل حياة الزوجين فى هذه الحالة مشحونة بعدم الثقة والغيرة والقلق حتى تنتهى بالطلاق .

أما الحب الناشئ عن الزواج فهو الحب الدائم الذى ترفل فى ظلاله الأسرتان بظلال وارفة من السعادة والهناءة فتظل الزوجة العفيفة محل احترام من زوجها وأهله وأهلها ، وجيرانهم ومعارفهم وأمام أولادها . . وصدق العربى حين قال لبنيه : (لقد ربيتكم كباراً وصغاراً وقبل أن تولدوا ، فقالوا : يا أبانا ربيتنا كباراً وصغاراً فكيف بنا قبل أن نولد ؟ فقال : لقد اخترت لكم أماً لا تعيرون بها) .

* * *

الفصل العاشر

الحيـــاة الزوجية

قضية الأهل والحمـــاة :

تبدأ الحياة الزوجية فى صباح اليوم التالى لليلة الزفاف ، حيث يكون العروسان قد قضيـا ليلتهما فى حب وتواد وتفاهم وانسجام ويصبحان وعليهما مواجهة الحياة سوياً كشخص واحد فى جسدين .

فبماذا يبدءان ؟ وإلى أين ينتهيان ؟ هذا هما طرفا الحياة الزوجية ، وهى الحياة التى يتحتم أن تكون نعيماً وارفاً ، وسعادة متدفقة ، لكل من عاشها على هدى من شريعة الإسلام وسنة نبيه المطهرة .

ينبغى على الزوجين أن يبدءا بالسلام على أقربائهما الذين فى دارهما ، ويدعوان لهم ويتقبلان دعواتهم بالمثل ، لأن ذلك هو ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة بنائه ، فقد روى النسائى فى حديث صحيح : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولم إذ بنى بزينب ، فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً ، ثم خرج إلى أمهات المؤمنين فسلم عليهن ، ودعا لهن ، وسلمن عليه ، ودعون له فكان يفعل ذلك صبيحة بنائه » .

وحقيق بالزوجين المسلمين أن يتبعا سنة رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، وحقيق بأهلهما وأقربائهما كذلك أن ينهجوا نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فنحن نرى فى هذا الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج صبيحة يوم بنائه إلى أمهات المؤمنين ، وهن ضرائر العروس فيسلم عليهن ، ويدعو لهن ، وهن يسلمن عليه ويدعون له فى صبيحة بنائه بضرة لهن ، لكنها أم جديدة للمؤمنين .

وجدير بنا أن نتعلم من هذا المشهد العظيم .

لقد فرض الإسلام على الزوجين حسن المعاشرة وطيب المعاملة ، وجعل بينهما مودة ورحمة ، فكيف يمكن أن تنتظم هذه المودة والرحمة إذا لم يحرص كل منهما على التواد والتراحم مع أحباب الآخر ؟ فلا يقطعهم بل يحرص على مودتهم إرضاء لرفيق حياته ، وعوناً له على طاعة الله فيهم .

وليكن لنا فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة .

تتزوج المرأة من رجل له أم وأب وأشقاء هو فرع من أمه وأبيه . وأشقاؤه ، نظائره ، فروع من هذا الأصل المبارك ، ولابد له أن يستمر فى مودتهم وحبهم بعد الزواج كما كان يفعل قبل الزواج . فالزواج فيض من الرحمة ، وآية من آيات المودة والحب ، فكيف نقبل من زوجة مسلمة أن تبدأ حياتها بالغيرة من حب زوجها لأهله وهو حب فطرى أوجبه الله على المسلمين لا يمس حب زوجها لها من قريب أو من بعيد ؟ كيف نقبل من زوجة مسلمة أن توحى لزوجها

أن يبدأ حياته معها بمعصية الله والرسول ، فى أهله فيعق والديه ، ويقطع رحمه من أجل عيونها ؟

أليس الواجب على المرأة المسلمة أن تتحلى بأدب الإسلام فتتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنة آله الطيبين الطاهرين ، فنساء النبي وهن ضرائر للعروس يقبلن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسلمن عليه ويدعون له صبيحة بنائه بأم جديدة للمؤمنين لأنهن يعلمن أن لها حق المودة والرحمة التى فرضها الله لهن سواء بسواء ، فهن جميعاً أزواج بشريعة الله ، ولابد أن يكن مصابيح يضئن حياته ، لا نيراناً يلهبنها ، فما بالنا نجد المرأة المسلمة تجد فى نفسها ضيقاً من حسن معاشرة أم زوجها أو من مودتها ، وهى التى حملته وأرضعته طفلا حتى صار رجلا ملء السمع والبصر ؟ ! . . أتريده لنفسها فقط بعد أن جعلوه لها ثمرة يانعة ألا تعرف أن سنة الله ستجعلها حماة فى المستقبل ؟

إن كل ما يمكن أن تتخيله المرأة المسلمة فى أم زوجها لا يمكن أن يقارن بما تتخيله لو أنها عاشرت ضرة لها فى دارها . ومع ذلك نرى في هدى أمهات المؤمنين حسن معاشرة ضرائرهن لأنهن جميعاً فى درجة واحدة من القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ضمن الله لهن العدل بينهن بشريعة سمحة ، فهن يتقاسمن جميعاً مودته وحبه دون ظلم أو عدوان .

إن هذه القضية التى اشتهرت بقضية الحماة هى فى حقيقتها نسج من عمل الشيطان يضل به المسلمات عن دينهن ، فيصور لهن أمهات

أزواجهن بصورة المنافسات لهن فى حب الزوج وما هن بمنافسات ، ولكنهن حبيبات أوجب الله لهن دوام المودة والرحمة ، حتى لو كن على الكفر ولم يدخلن فى الإسلام .

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » . (الإسراء ٢٣ — ٢٤)

« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً . . . » . (لقمان — ١٥)

إن السعادة الزوجية لن تتحقق إذا لم تتفهم المرأة المسلمة واجبها نحو حماتها وأهل زوجها ، وواجبها أن تساعد زوجها على صلتهم وأن تسعد بهذه الصلة لأنها تدل على صلاح زوجها وطاعته لربه ، وهى الضمان الوحيد لأن يحرص على إسعادها وإعطائها حقها . فالرجل الصالح إن أحب زوجته أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها كما قال الحسن بن على رضى الله عنه : إن الخطر كل الخطر على سعادة الزوجة بحياة آمنة فى عش زواجها أن تقبل من زوجها معصية الله فى أهله ، بل وفى فقراء المسلمين ولتقرأ ما أمر الله به :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً ».

(الإسراء ٢٦ — ٢٨)

ولتكن عوناً له على طاعة الله فى والديه وأهله وفى المسكين ، وابن السبيل حتى تطمئن إلى طاعته لله فيها فيحسن إليها ولا يبخسها حقها ، فهو إن أساء إلى والديه وأهله كانت إساءته إليها أهون عليه ، وإن أحسن إليهم كان إحسانه إليها أيسر وأكبر لأنها بالزواج صارت بعضاً منه . . قد تجد الزوجة المسلمة فى بعض عبارات أم زوجها ما لا يريحها ، فتظن أن ذلك يمكن أن يؤثر على زوجها فى علاقته بها ، وهذا أيضاً وهم من عمل الشيطان .

فإن المرأة بزواجها أصبحت هى وزوجها شخصاً واحداً يضم بين جناحيه من المودة والعاطفة ما لا يوجد بين أى منهما وأى إنسان آخر مهما قرب إلا الضرة فقد تتساوى العاطفة بين الرجل وزوجته الثانية مع ما بينه وبين زوجته الأولى ، لاتحاد دوريهما فى حياته ، ومع ذلك نرى هدى آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الإحسان إليها ، فما بالنا بالأم ؟

إن الزوج هو أول من يعلم أن أمه قد تبدى من الحنان عليه ، ما يساء فهمه عند الزوجة فتحسبها خصماً فإن صححت الزوجة مفهومها وفسرت كل سلوك الحماة التفسير الصحيح وهو المبالغة فى الحنان على ولدها وفلذة كبدها ، وتذكرت عاطفة الأمومة وقوتها ، لمر كل شيء فى سماء الأسرة بسلام ، واستمرت المودة والرحمة بين كل أفرادها ، بل وبين الأسرة وبين المجتمع من فقراء ومساكين طاعة لله تبارك وتعالى فيما سبق ذكره من آيات سورة الإسراء وثقة فى أن

ما يقدمه الرجل من صلة لأهله ، ورحمة للمستحقين من المسلمين ، هو بركة ورزق للزوجة وأولادها ، لاتضييعاً ولا تبذيراً ، فالله تبارك وتعالى يقول : « **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** » . (الإسراء — ٣٠)

إن الإنسان الزوج هو خليفة الله فى الأرض ، وأداته لتوزيع رزقه على عباده ، وهو جل وعلا الأصل والمصدر لكل الأرزاق بنص الآية ، فطوبى لمن اختاره الله وسيلة صلة للفقراء والمساكين ، فضلا عن الوالدين والأقربين . إن ذلك تكريم لهذا الإنسان من الله ، وتوسيع له فى رزقه ، فهل تقبل امرأة لزوجها أن تحرمه من هذه الدرجة العالية وهى تعلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما نقص مال من صدقة » ، وقوله : « الأقربون أولى بالمعروف » .

إنها إن فعلت فذلك هو التبذير بعينه الذى آخى بين صاحبه وبين الشيطان الكافر بنعم ربه ، لأنها إن أغلقت رحمة زوجها على ذوى القربى والمساكين فإنها تحرم زوجها ونفسها من رحمة الله التى وسعت كل شيء . إن العقل والمنطق لا يقبلان أن يفكر الإنسان فى مطالبة الوالدين بالصبر على أذى الزوجة أو الزوج أو على قطع صلتهما ، بل إن ذلك فرض واجب على الأبناء لقوله تعالى : « **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** . . . » . أما الوالدان فإن رحمتهما وبرهما لأولادهما فوق كل ظن أو تشكيك مهما كانت معاملتهما الظاهرة للأبناء .

ولتقرأ المرأة المسلمة الحديث القدسى : « من تقرب إلى شبراً

تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشي أتيته هرولة ، وأنا أحن على عبدى من الأم بولدها » .

إن حنان الأم على ولدها هو وحده الذى يمكن أن يكون له هذه المنزلة بعد حنان الله — سبحانه — أوليس من الجنون إذن أن تشكك المرأة فى حنان حماتها أو تشك ؟ إن الأم قد تخطىء فى التعبير عن هذا الحنان ، ولكن أليس من حقها أن نتحمل نحن الشباب هذا الخطأ الذى لا يستتر خلفه إلا دوافع الحب والرحمة ، وألا نفكر فى تحميل أحد الوالدين وقد بلغ بهما الكبر ما لا يطيقان ، والله تعالى يقول :

« . . . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً » . (الإسراء — ٢٣)

إذا كان ذلك فرضاً على الزوج ، أفلا يكون فرضاً على زوجته وهى شريكة حياته فى الواجبات والحقوق ؟ والإسلام لا يترك للأم « الحماة » الحبل على الغارب ، بل يأمرها بحسن العشرة ومساعدة ابنها على طاعة الله والإحسان إلى زوجته من طاعة الله ، ولتعتبرها ابنتها . . وحبها لابنها يدفعها إلى أن تحسن إلى من يحب . . . إنها أم أحفادها الذين تحبهم . . فلتتق الله فى زوجة ابنها حتى يقذف الله فى قلب الزوجة حبها والإحسان إليها ولو أن كل والدين وكل زوجين راقب ربه فى سره وإعلانه وفى حسن معاشرته لكان المجتمع الفاضل الذى ينشده الإسلام وأرسى قواعده الأولى نبى الرحمة فى المدينة المنورة ولتحققت المدينة الفاضلة التى كان يحلم بها الفلاسفة ولم تتحقق فى عهدهم لأنهم على غير الإسلام وحققها نبى الهدى محمد عليه الصلاة

والسلام وخلفاؤه الراشدون من بعده ، فهلا فقهتم دينكم يا شبيبة الإسلام حتى تعيدوا للإسلام مجده وعزه ؟ . . نرجو .

حقوق الزوجة على زوجها :

١ ــ المساواة فى الحقوق والواجبات :

حدد القرآن الكريم حقوق الزوجة على زوجها ولعل أول هذه الحقوق هو المساواة بينهما فى الحقوق والواجبات لقوله تعالى : **« . . . ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ... »** . (البقرة ــ ٢٢٨)

وهذا النص القرآنى الكريم واضح الدلالة على المساواة التامة بين حقوق المرأة وواجباتها قبل زوجها ، فعلى الرجل للزوجة من الحقوق بقدر ما عليها له من الواجبات دون تمييز بينهما بسبب النوع .

أما قوله تعالى : **« . . . وللرجال عليهن درجة . . . »** ، فهى درجة نظامية لا أكثر ولا أقل تفرضها مصلحة الأسرة لتنتظم مسيرتها إلى هدفها فى خير وسلام ،ويبررها الفرق بين طبيعة مسئوليات الرجل ومسئوليات المرأة داخل الأسرة .

إن الشريعة الإسلامية تقضى بتعيين أمير لكل جماعة يبلغ عددها ثلاثة فأكثر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم أحدكم » .

والحكمة فى رفع أحد الأفراد الثلاثة فأكثر درجة على أقرانه واضحة جلية ، فهى لا تعنى أنه خير من أحدهم ، ولكنها مسألة نظام لتسيير دفة الجماعة دون خلافات ، فكثيراً ما تتعدد الآراء الصائبة للوصول بالجماعة إلى غاية من الغايات ، فكيف يمكن اتخاذ القرار الذى يلتزم به الجميع ؟ لابد من تحديد أمير تكون له على الجميع الطاعة حتى يختار من الآراء المطروحة قراراً ملزماً لهم دون خلاف .

ولقد سبق أن أبرز الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول خطبة خطبها فى المسلمين بعد اختياره أميراً لهم هذا المعنى حيث قال : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم » . وهذا يؤكد لنا أن درجة الإمارة فى الإسلام لا تعنى تفضيل الأمير على أحد من إخوانه المؤمنين فهم جميعاً سواء ، والأمر بينهم شورى إلا أن مقتضى الحكم بالشورى أن يكون هناك من يأخذ القرار الذى يلتزم به الجميع من بين الآراء المطروحة فى الشورى فتتوحد الكلمة وتسير الجماعة فى سلام . والأسرة جماعة مسلمة تبدأ باثنين ثم تزيد بعدد الأولاد إلى ما شاء الله لها تزيد ، ومن ثم كان لزاماً أن يعين لها أمير ، ولا يتطلب تعيين الأمير انتظار المولود الأول ليصبح عدد الأسرة ثلاثة لأنه لا يقبل عقلاً أن يكون الأمير من بين الأبناء الجدد لقصورهم ، ومن ثم فلابد أن يكون الأمير واحداً من الزوجين . وقد حدد القرآن الكريم الرجل دون المرأة لهذا المنصب لما يتميز به من صفات وواجبات تفرضه أميراً فى الأسرة لصالحها ، لا لتميزه عنها فى الحقوق أو الواجبات .

حيث نص القرآن الكريم على أنهما فى هذا الأمر سواء ، كما أوضحت السنة المشرفة هذا الأمر فى قول أبى بكر رضى الله عنه : « وليت عليكم ولست بخيركم » .

يقول الحق تبارك وتعالى : « **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . . .** » . (النساء — ٣٤)

هذا هو سبب القوامة . إن طبيعة عمل الرجل تفرض عليه السعى فى خارج المنزل للحصول على الرزق ، والتدبير فى أمر إنفاقه على الأسرة بما يحقق لها الحياة الرغدة ، دون تبذير أو إسراف . أما طبيعة عمل المرأة فإنها تفرض عليها أن تبذل الجهد لإسعاد زوجها وإدارة منزله وحسن تربية أولاده داخل المنزل ولاشك أن السعى لتحصيل الرزق يكسب الرجل ميزات خاصة فهو يفهم الظروف الخارجية المؤثرة على الأسرة التى لا يمكن أن تحيط بها المرأة وهى داخل منزلها ، إلا بالقدر الذى يعرضه عليها زوجها من هذه الظروف ، هذا بالإضافة إلى أن الرجل يحيط بكل الظروف الداخلية فى المنزل المؤثرة على حياة الأسرة بحكم حياته المستمرة داخل المنزل واشتراكه فى تحديد ميزانيته ، فهو لهذا التميز أقدر وبدون منازع على اتخاذ القرار السليم فيما يختص بسياسة الأسرة من المرأة . لهذا كان اختياره صاحب القوامة فى الأسرة ، ولا يعد ذلك تميزاً بسبب النوع فالزوجان فى الحقوق والواجبات سواء — كما أسلفنا .

إن المال هو عصب الحياة كما يقولون ، وإن اتخاذ القرار فى أمر

إنفاقه فى الأسرة يجب أن يوكل لمن يكد ويسعى للحصول عليه لأنه أعرف بظروف تحصيله ، وأقدر على تقدير إمكانات توفيره ، وليس معنى ذلك أى تفضيل للرجل على المرأة فإن الواجبات الموكولة إليها أخطر بكثير من الواجبات الموكولة للرجل . إن إدارة المنزل وحسن تربية الأبناء واجبات خطيرة تنبنى على أساسها سلامة الأمة بأكملها . ولهذا قال أمير الشعراء أحمد شوقى رحمه الله :

ربوا البنات فإنها فى الشرق   علة ذلك الإخفـــاق

الأم مدرسة إذا أعـــددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق

وقد بينت الآية الكريمة فضل المرأة الصالحة فأشارت به عقب تقريرها القوامة للرجل مباشرة حيث قال تعالى : « **فالصالحات قانتات حافظات للغيب** » أى أن المرأة الصالحة تطيع زوجها فيما يتخذ من قرارات وتتقى ربها فتحفظ عليه سره ولا تفضحه فى أمر حفظه الله من الفضيحة فيه أى أنها معينة بقرار سماوى أمينة سر الأسرة وهو تكريم للمرأة مقابل تكريم الرجل سواء بسواء .

ثم تستمر الآية الكريمة فترسم للأمير أسلوبه فى ضمان الطاعة لما يصدر من قرارات داخل الأسرة ، وتبين له كيف يتصرف مع زوجته إذا هى ركنت إلى مخالفة أمره ، فيقول الحق تبارك وتعالى : « **. . . واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً** ». (النساء — ٣٤)

أى أن للأمير حق الموعظة ، وعلى الزوجة الاستماع إليها ، فإذا لم تستمع إلى موعظته وتلتزم بطاعته فله أن يهجرها فى الفراش فقط لا فى المنزل كما يظن البعض ، باعتبار الحرمان من لذة الجماع ، تنبيه مستتر إلى تصميمه على القرار لمصلحة الأسرة ، لا يشعر به أحد إلا الزوجة فتعود إلى صوابها وتطيع زوجها ، فإن لم يردها ذلك التنبيه المستتر أباح له الله أن يضربها ضرباً غير مبرح علها تحافظ على وحدة الكلمة فى الأسرة وقد اشترط الشارع عليه أن لا يضربها على الوجه فهو مجمع الحسن عند المرأة وموضع الكرامة ، كما اشترط الشارع عليه ألا يوجه إليها لفظاً قبيحاً احتراماً لشخصيتها حتى تستمر المرأة عزيزة كريمة موفورة الثقة فى نفسها ، فقد قال رجل من الصحابة يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » رواه أحمد فى المسند وأبو داود وابن ماجه وحسنه .

ومعنى لا تهجر إلا فى البيت : أن يقتصر الهجر على الجماع فقط فلا يتحول عنها فى الفراش ولا يحولها إلى غرفة أخرى .

هذا هو قانون العقوبات الإسلامى فى قيادة الأسرة ، تجده حريصاً كل الحرص على أن يصل الأمير إلى وحدة الكلمة بأيسر الطرق ، حتى تسير أمورها بسلام دون أن يشعر بذلك أحد من خارج الأسرة ، وهل يمكن أن تسير الأمور فى جماعة صالحة بغير قانون ؟

ولكن إذا صممت الزوجة على الشقاق ولم يفلح معها قانون الإصلاح الداخلى للأسرة كما حدده القرآن الكريم ، كان الإصلاح

من خارج الأسرة أمراً لا مفر منه بنص الآية الكريمة : « **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً**(١) **يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً** » . (النساء – ٣٥)

من هذا المنهج الربانى الذى رسمه الله تعالى لنظام الأسرة يتضح أن الأفضلية والأولوية لأن يحل الزوجان خلافهما فيما بينهما دون أن يشعر أحد وأن تكون القوامة فى هذا الأمر للرجل فعليه الموعظة وعليه التنبيه بالوسائل التى لا تجرح كرامة زوجته ولا تؤذيها ، فإن صممت على الشقاق انتقلت الولاية من الزوج إلى التحكيم فى مساواة تامة بين الزوجين لا تميز فيها لواحد منهما على الآخر : « . . . **فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً** » .

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل للزوج بصفته صاحب القوامة حق الموعظة والضغط على زوجته بما لا يجرحها لتوحيد الكلمة فى الأسرة ، فقد نبهه إلى التريث والتعقل فيما يكره من رأى الزوجة فعسى أن يكون فى رأيها خيراً كثيراً وأوصاه بأن لا يجور عليها ، بل يعاشرها بالمعروف ، ولا يتعالى عليها ولا يدعى أن قوامته عليها تجعله على صواب دائم حيث يقول الحق تبارك وتعالى : « . . . **وعاشروهن**

---

(١) ولهذا وجب اختيار الحكمين اختياراً دقيقاً فإن القرآن لايكذب : « ... إن يريدا إصلاحاً ...» .. بعث عمر – رضى الله عنه – رجلا لإصلاح ذات البين فعاد ولم يصلحها فضربه بدرته وقال: « ... إن يريدا إصلاحاً ...» فعاد وعاد الوفاق بينهما .

بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » . **(النساء — ١٩)**

وعلى الجملة أيها الأمير — الرجل — كن عادلا فى كل تصرفاتك مع زوجتك :

* فى المواءمة بين حبك لزوجك وحبك لوالديك وأهلك ، فلا يطغى جانب على جانب ولا يسيطر على حساب حب آخر فاعط كل ذى حق حقه بالحسنى والقسطاس المستقيم .

* لا تداعب أختاً لك أمام زوجتك محافظة على مشاعرها .

* لا تذكر محاسن امرأة أخرى أمامها ولو كانت عمتك ، أو خالتك أو أمك .

* أشعرها بأنها كل شىء فى حياتك — والكذب — (أى التورية) فى هذا المقام حلال بنص الشرع(١) .

* كن لها كما تحب أن تكون هى لك فى كل ميادين الحياة وجوانب الحياة الزوجية فإنها تحب منك كما تحب منها .

* إعطها قسطاً وافراً وحظاً يسيراً من الترفيه خارج المنزل كلون من ألوان التغيير — ولا سيما قبل أن يكون لها أطفال تشغل نفسها بهم — وبخاصة إذا كانت ربة بيت وليست ذات عمل خارج البيت .

---

(١) (إن فى المعاريض لمندوحة) عن الكذب وقد أباح الرسول الكريم المعاريض فى هذا المقام، وإصلاح ذات البين، وعلى العدو .

• شاركها وجدانياً فيما تحب أن تشاركك فيه ، فزر أهلها ، وصويحباتها زيارات أسرية ولك فى رسول الله أسوة حسنة .

فقد كان صلى الله عليه وسلم يهش للقاء بعض الصحابيات الجليلات ويقول : « إنها كانت صاحبة خديجة – رضى الله عنها – » حتى إن عائشة – رضى الله عنها – تقول : ما غرت على أحد ما غرت على خديجة – من كثرة ما كان يذكرها – صلى الله عليه وسلم – بالخير .

• لا تجعلها تغار من عملك بانشغالك به أكثر من اللازم ولا تجعله يستأثر بكل وقتك وبخاصة إجازة الأسبوع فلا تحرمها منك فيها إما فى البيت أو خارجه حتى لا تشعر بالملل والسآمة .

• لا تكن مستبداً برأيك فاستشرها وخذ برأيها إن كان صواباً وإن خالفتها الرأى فاصرفها إلى رأيك برفق ولباقة ولك فى رسولك المربى العظيم – صلى الله عليه وسلم – أسوة حسنة . . فقد استشار أم المؤمنين أم سلمة فى صلح الحديبية وكان رأيها خيراً وبركة ، فقد دخل عليها مغضباً قائلا : « لقد هلك أصحابى » ، فسألته : وكيف يا رسول الله ؟ فقال : « إنهم امتنعوا عن التحلل من الإحرام » ، فقالت : يا رسول الله اخرج عليهم وتحلل وانحر هديك وهم سيفعلون . وما إن فعل – صلى الله عليه وسلم – حتى لم يشذ واحد منهم – رضى الله عليهم – تأسياً برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهذا هو الهدى النبوى الشريف فى سياسة البيت وفى سياسة الأمة .

* إذا خرجت من البيت فشيعها بابتسامة وطلب الدعاء كما تحب أن تشيعك بذلك — وبخاصة عند السفر .

* وإذا دخلت فلاتفاجئ حتى تكون متأهبة للقائك ولئلا تكون على حال لا تحب أن تراها عليها — وبخاصة إذا كنت قادماً من السفر .

* حاذر من الكذب عليها واستعمل المعاريض فيما أحل الله « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » حتى لا تهتز شخصيتك الإسلامية أمامها .

* إنها أختك فى الله والعقيدة فأشعرها دائماً بهذه المنزلة بأنها سكنك وأم ولدك وأختك وهى كل شىء فى حياتك .

* انظر معها إلى الحياة بمنظار إسلامى واحد . . ولا تنس أنك الأقوى ووصاك حبيبك — صلى الله عليه وسلم — : « رفقاً بالقوارير » ، « إنما النساء شقائق الرجال » ، « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه إن ذهبت تقيمه كسر وإن تركته لم يزل أعوج » أو كما قال — صلى الله عليه وسلم —(١) .

٢ — المعاشرة بالمعروف حتى فى حالة الكراهية :

تعالج آية (النساء — ١٩) : « . . . وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »

---

(١) راجع كتاب: ولماذا أكون مسلماً، الاسلام وبناء المجتمع الدكتور أحمد العسال .

حق الزوجة إذا كره منها زوجها شيئاً ، حيث تبين أن من حقها عليه أن يراجع نفسه فعسى أن يكون على خطأ فى أسباب الكراهية ، وأن يكون فى زوجته خير كثير لم يستطع هو أن يلحظه لقصور فى نفسه كما فرضت الآية الكريمة المعاشرة بالمعروف حتى فى حالة الكراهية وذلك على التفصيل الذى أوردته السنة المشرفة : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت » .

أى أن الشريعة الإسلامية وقد نصبت الرجل قيماً فى الأسرة ، أوجبت عليه العدل والاجتهاد فيه حتى يكون أهلا لهذه القوامة ، وتلك هى ذروة الحكمة فى إدارة الأمم فضلا عن إدارة الأسر ، وقد لخص الفلاسفة هذه الحكمة فى عبارة « العدل أساس الملك » وفى هذا يقول القرآن الكريم :

« . . . ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » . (المائدة — ٨)

« . . . ولا تنسوا الفضل بينكم . . . » . (البقرة — ٢٣٧)

« . . . وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » . (النساء — ٢١)

وقد جاء فى روضة المحبين أن طائفة من العلماء أوجبوا على الزوج أن يطأ زوجته بالمعروف كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف . فذلك من حقها المقصود بهذه الآية الكريمة ، بل هو عمدة المعاشرة ومقصودها . الشرع الحكيم يهدف إلى ضرورة أن نغرس فى المرأة

احترامنا لشخصيتها ومحافظتنا على كرامتها ، لأن ذلك يمنحها من القوة ما يجعلها قادرة على الصمود فى وجه التيارات العديدة التى تواجهها فى حياتها ، فهى بهذه الثقة بالنفس تستطيع الانتصار على عوامل الضعف فى نفسها ، فلا يمكن خداعها أو جرها إلى مهاوى الرذيلة والخطيئة .

أما إذا أغفلنا هذا المعنى الحكيم واتبعنا سبيل الجهلة من الرجال الذين لا يرضى غرورهم إلا إذلال زوجاتهم واستضعافهن ، فإن ذلك لا ينتج عنه إلا دفعها إلى التخلق بصفات الكذب والخيانة والنفاق ، وغير ذلك من أرذل الصفات ، فإن فعلت كان على الأسرة العفاء .

٣ – التزين للمرأة وحسن صحبتها :

لا يقتصر الأمر على ردع الزوج عن دواعى الغرور ، والتصلب فى الرأى وإلزامه بحسن المعاشرة حتى فى هذه الظروف ، أو أن يعزل نفسه عن القوامة ويلجأ إلى تحكيم عادل يتساوى فيه مع زوجته فى ندية لا تمييز فيها ولا تفضيل ، إذا عجز أن يصل بحكمته هو إلى وحدة الكلمة فى الأسرة ، بل إن السنة المطهرة تفرض عليه أن يحرص على إرضاء زوجته كما يحب هو أن تحرص زوجته على إرضائه سواء بسواء .

فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : « إنى أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى » ، وقد وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المقسطين فى أهليهم بمنابر من نور على يمين الرحمن يوم القيامة فقال صلى الله عليه وسلم : « المقسطون يوم القيامة على منابر من نور على

يمين الرحمن (وكلتا يديه يمين) الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا » رواه مسلم وغيره .

لقد بلغ من حرص الشريعة الإسلامية على تكريم المرأة وإعطائها حقها أن شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الأمر فى خطبة الوداع فقال صلى الله عليه وسلم : « ألا واستوصوا بالنساء خيراً ، اتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون » ؟

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فأشار بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكسها إلى الناس ويقول : « اللهم اشهد . اللهم اشهد ثلاث مرات » . (رواه مسلم)

فإذا ما التزم الرجال بهذه الشريعة السمحاء ، توحدت كلمة الأسرة ورفرفت عليها السعادة وأنبت الله فيها من الذرية النبات الحسن الصالح .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » . (رواه الطبرانى وصححه)

ويقول صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين أخلاقاً أحسنهم خلقاً ، وخيارهم خيارهم لنسائهم » . (رواه الترمذى وحسنه)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب حين خطب منه فاطمة : « هى لك على أن تحسن صحبتها » . (رواه الطبرانى وصححه)

٤ ــ مساعدة الزوجة فى الأعمال المنزلية :

لقد بلغ من حسن معاشرة الرسول صلى الله عليه وسلم لنسائه التبرع بمساعدتهن فى واجباتهن المنزلية .

قالت عائشة رضى الله عنها : « كان صلى الله عليه وسلم يكون فى مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » .
(رواه البخارى والترمذى)

٥ ــ الاستماع إلى نقد المرأة بصدر رحب :

ليعلم الرجال أن نساء النبى كن يراجعنه فى الرأى فلا يغضب منهن لأنه يشرع للأزواج سنته المطهرة فى معاملة زوجاتهم ، وهو القدوة فى كل ما قال أو فعل .

قالت عائشة رضى الله عنها مرة وقد غضبت : « أنت الذى تزعم أنك نبى ؟ ! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلماً وكرماً » حديث صحيح .

وقد روى البخارى أنه جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة كلام حتى دخل أبو بكر حكماً بينه صلى الله عليه وسلم وبينها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تكلمى أو أتكلم ؟ » فقالت : تكلم أنت ، ولا تقل إلا حقاً ! فلطمها أبو بكر رضى الله عنه حتى أدمى فاها وقال : أو يقول غير الحق يا عدوة نفسها ؟

فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنا لم ندعك لهذا ، ولم نرد منك ذلك » .

هذا هو حق الزوجة الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المعاملة فهن بشر قد يخطئن فى حق أزواجهن ، ولكن بقاء الحياة الزوجية أسمى وأعز من أن تزلزلها غضبة من زوجة ،ولنا فى رسول الله أسوة حسنة وهو الذى يقول : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً » رواه الحافظ العراقى وصححه . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : والله إنا كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء شيئاً ، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل لهن ما قسم ، وبينما أنا فى أمر أأتمره أن قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ فقلت لها : ومالك أنت ولما ههنا ؟ وتكلفك فى أمر الدين ؟ فقالت لى : « عجباً يا ابن الخطاب ! ما تريد أن تراجع أنت ؟ وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، قال : فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يا بنية إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت : إنا والله لنراجعه » .
(رواه البخارى)

هذا هو أسلوب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين ملئوا الدنيا علماً ونوراً ، لم يغضب عمر حين راجعته زوجته وقدمت الدليل

على صحة مسلكها حين راجعته متأسية بأم المؤمنين حفصة بنت عمر ، ولكنه حرص أولاً على أن يتعلم عن زوجته ما لم يعلم ، فذهب إلى ابنته حفصة ليستوثق من علم زوجته فأعلمته بأنها صادقة ، ولكنه لم يكتف بذلك التعلم ، بل حرص على أن يعلم المسلمين كافة وهو أمير المؤمنين بما تعلم عن زوجته وابنته وهما من نساء المؤمنين .

هذه هي مكانة المرأة في الإسلام فهي تقف على قدم المساواة مع الرجل في كل الحقوق والواجبات حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما النساء شقائق الرجال » رواه أحمد في مسنده ، وأبو داود والترمذي وصححه وإذا كان الإسلام قد منح الرجل حق الولاية في البيت وألزم أهله بطاعته ، فإن ذلك لم يكن لتفضيل الرجل على زوجته ولكنه مؤسس على طبيعة عمل الرجل وواجباته التي تجعله أقدر على اتخاذ القرارات الصحيحة لصالح الأسرة من الزوجة بحكم طبيعة عملها وواجباتها داخل المنزل .

وعلى الرغم من قوامة الرجل في منزله فإن الإسلام أمره بالتعقل والإقساط فيما يتخذ من قرارات وأباح لزوجته مراجعته وفرض عليه الاستماع والتحري على الرأي الصواب بعد سماع مراجعة زوجته ، فإن وجدها على صواب أخذ برأيها دون حساسية فهي شقيقته في الإنسانية وقد تعلم من الأمور ما لا يعلم لما وهبها الله من عقل وفكر . وجرى بالقيم أن يكون الحق هدفه والعدل وسيلته لا الغطرسة والغرور فهما يجلبان الخطأ ويرديان موارد التهلكة .

٦ - غض الطرف عن بعض نقائص الزوجة وملاطفتها :

إن من الحق والعدل أن يغض الزوج طرفه عن بعض نقائص زوجته ، ويذكر ما لها من محاسن ومكارم تغطى هذا النقص لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم : « لا يفرك (أى لا يبغض) مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى منها آخر » .

وعليه دائماً ملاطفتها وملاعبتها والمزاح معها فقد كان مما يقوله عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو القوى الشديد الجاد فى حكمه وعدله : « ينبغى للرجل أن يكون فى أهله كالصبى ، أى فى الأنس والسهولة ، فإن كان فى القوم كان رجلا » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « والله رأيت النبى صلى الله عليه وسلم على باب حجرتى والحبشة يلعبون بالحراب فى المسجد ورسول الله يسترنى بردائه لأنظر إلى لعبهم ، بين أذنه وعاتقه ، ثم يقوم من أجلى حتى أكون أنا التى أنصرف فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو » . (رواه مسلم)

وقالت عائشة رضى الله عنها : « إنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفره وهى جارية قالت : لم أحمل من اللحم ولم أبدن ، فقال لأصحابه : تقدموا ، فتقدموا ، ثم قال : تعالى أسابقك ! فسابقته ، فسبقته ، فلما كان بعد وحملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه فى سفر ، فقال لأصحابه : تقدموا ، فتقدموا ثم قال : تعالى أسابقك ونسيت الذى كان ، وقد حملت اللحم ، فقلت : كيف أسابقك

يا رسول الله ، وأنا على هذه الحال ؟ فقال : لتفعلن ، فسابقته فسبقني ، فجعل يضحك وقال : هذه بتلك السبقة » رواه أحمد في سنده وأبو داود والنسائي وصححه .

بل وعليه أن يقدر طبيعتها فلا يتعامل معها بمقاييس الرجال ولكن يتعامل معها بمقاييس النساء اللائي خلقن من ضلع أعوج إن ذهب يقيمه كسره ، وإن تركه لم يزل أعوج وذلك خير من كسره ، ما دام الاعوجاج هو طبيعته التي فطره الله عليها ذلك هو حكم الله : « ... **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** » .

(المائدة — ٥٠)

حق الزوج على زوجته :

١ — الطاعة :

إن أول حقوق للزوج على زوجته الطاعة ، فقد ولاه الله القوامة على الأسرة ، وأوجب له الطاعة حتى يستطيع أن ينفذ قوامته في سهولة ويسر لا يشوبها كدر أو غضب .

وللرجل أن يمنع زوجته من العمل خارج المنزل أو التعليم خارج المنزل ما لم يكن قد شرط لها حقها في ذلك عند العقد فإذا كان شرط لها ذلك فعليه الوفاء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » رواه الترمذي وصححه

ولقد تأكد حق الزوج فى الطاعة حتى عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاد فى سبيل الله : « جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن أصيبوا أجروا ، وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معاشر النساء نقوم عليهم ، فما لنا من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبلغى من لقيت من النساء : أن طاعة المرأة الزوج واعترافها بحقه يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله ».

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله سبحانه وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهى لا تستغنى عنه » رواه النسائى والبزار وصححه .

وعن حصين بن محصن قال : حدثتنى عمتى قالت : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة فقال لى : أى هذه أذات بعل ؟ قالت : نعم . قال : كيف أنت له ؟ قالت : لا آلوه إلا ما عجزت عنه . قال : فانظرى أين أنت منه فإنه هو جنتك ونارك » رواه الترمذى وسنده صحيح .

وروى الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها . قالت : فأى الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ قال : أمه » .

إن طاعة المرأة لزوجها نظام إسلامى حكيم يضمن للأسرة سعادتها ويحفظ لها وحدتها ويؤمن لها مسيرتها حتى تصل إلى أهدافها بسلام .

* * *

٢ ـ حفظ المـــال :

ومن حق الزوج على زوجته أن تحفظ له ماله ، فتكون مدبرة فى نفقتها ، ملتزمة بطاعته فيه فلا تنفق شيئاً أو تعطى أحداً من ماله إلا بإذنه وبعد أن تستوثق من رضاه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنفق امرأة شيئاً من بيت زوجها إلا بإذنه . قيل : يا رسول الله ولا الطعام ؟ قال : ذلك هو أفضل أموالنا » رواه الترمذى بسند جيد .

٣ ـ التصدق عليه من مالها فى حالة العسرة أو الصبر على شظف العيش إن لم يكن لديها مال :

وإن من حق الزوج على زوجته أن تتصدق عليه من مالها إذا أعسر وإن لم يكن لديها مال فلتصبر على شظف العيش معه .

قالت زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن » . قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت : إنك رجل خفيف ذات اليد ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرنا بالصدقة ، فأته فاسأله ، فإن كان ذلك يجزى عنى ، وإلا صرفتها إلى غيركم ، فقال عبد الله : ائته أنت ، فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتها حاجتى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألقيت عليه المهابة ، فخرج علينا بلال رضى الله عنه فقلنا له : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن امرأتين

بالباب يسألانك : أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما ، وعلى أيتام حجورهما ، ولا تخبره من نحن ؟ قالت : فدخل بلال على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من هما ؟ » فقال : امرأة من الأنصار وزينب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى الزيانب ؟ » قال : امرأة عبد الله بن مسعود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لها أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة » . (رواه البخارى ومسلم)

٤ ـ أن لا تهب من مالها شيئاً إلا بإذنه :

من حق الزوج على زوجته أن لا تهب من مالها شيئاً إلا بإذنه ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يجوز لامرأة هبة فى مالها إذا ملك زوجها عصمتها إلا بإذن زوجها » رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم على اختلاف فى الرواية وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبى .

وإن هذا الحق قائم للزوج بحكم قوامته للأسرة التى لا ينقص منها أن تكون الزوجة أكثر منه ثراء فإن قوامة الرجل ليس مردها إلى المال وحده ، ولكن مردها إلى طبيعة عمله ومسئولياته فى الأسرة ، وهو أقدر على اتخاذ القرار بشأن الهبة من مال الزوجة حفاظاً على مستقبل الزوجة ومستقبل أولادها فإذا رغبت الزوجة أن تهب أحداً من مالها فعليها أن تستأذن زوجها وتشاوره وتقنعه ، ثم تنفذ ما يتخذه من قرار ، وهو مكلف أن يعدل فى قوامته فلا يجوز سواء كان الإنفاق على الأسرة

من ماله ، أو كان القرار بشأن هبة تدفعها الأسرة من مال زوجته ، فالزوج مقيد فى اتخاذ قراراته فى الحالتين بألا ينفق المال عبثاً وألا يوقع الضرر بزوجته وأولاده . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لأن تذر أولادك أغنياء ، خير من أن تذرهم فقراء يتكففون الناس » .

ولا شك أن فى هذا النظام صلاحاً للأسرة ، لأنه يدعم قوامة الرجل المنزلة من لدن حكيم خبير ، والتى لا ينال منها عارض زائل من عوارض المال أو الجاه أو السلطان فقد يتزوج الرجل امرأة عاملة كما نرى هذه الأيام ، وقد يزيد دخلها عن دخله ، وقد تصل فى المناصب إلى درجة أعلى من درجته ، ولكن هذا لا يغير شيئاً من نظام الأسرة الذى رسمه العزيز ، الحميد فالرجل فى البيت هو القيم ، لا تنقص من قدره هذه الفوارق الزائلة التى صنعها البشر ، بل يبقى مسموع الكلمة فى بيته بنص التدبير الذى وضعه خالق البشر .

٥ – لا تصوم النفل إلا بإذن زوجها ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه :

من حق الزوج على زوجته ألا تصوم النفل إلا بإذنه ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرأة أن تصوم زوجها شاهد إلا بإذنه (أى غير رمضان) ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه » .

وعن أبى سعيد قال : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن عنده فقالت : زوجى صفوان بن المعطل يضربنى إذا صليت ، ويفطرنى إذا صمت ، ولا يصلى الفجر حتى تطلع الشمس .

قال وصفوان عنده ، فسأله عما قالت ؟ قال : يا رسول الله أما قولها : يضربني إذا صليت فإنها تقرأ بسورتين ، وقد نهيتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولو كانت سورة واحدة ، لكفت الناس » . قال : وأما قولها : يفطرني إذا صمت ، فإنها تنطلق تصوم ، وأنا رجل شاب فلا أصبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصوم امرأة إلا بإذن زوجها » ، وأما قولها : إني لا أصلي حتى تطلع الشمس ، فإنا أهل بيت ، قد عرفت عنا ذاك ، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس . قال : « فإذا استيقظت يا صفوان فصل » رواه أبو داود وابن ماجه وصححه .

٦ – تدبير شئون المنزل :

من حق الزوج على زوجته قيامها بتدبير شئون المنزل وتربية الأولاد ، فهذه طبيعتها ، وهذا هو تخصصها في الحياة الزوجية ، وليكن في ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة .

جاءت فاطمة إلى أبيها تشكو يبس يديها من كثرة إدارة الرحى ، ومشقة القيام بشئون منزل زوجها ، وطلبت خادماً ، فقال لها : « ألا أدلك على ما هو خير لك من الخادم ؟ تسبحين الله إذا آويت إلى فراشك ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدينه ثلاثاً وثلاثين ، وتكبرين أربعاً وثلاثين ، فذلك خير لك من الخادم »

هذا هو حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أشرف نساء

العالمين فاطمة الزهراء بأن تقوم على خدمة بيت زوجها وتبقى مسبحة محمدة مكبرة لرب العالمين :

ونساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن أمهات المؤمنين كن يقمن بالطحين والخبز وغير ذلك ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تقول : « كنت أخدم زوجي الزبير بن العوام ، خدمة البيت كله ، وكان له فرس فكنت أسوسه ، وكنت أحسن له وأقوم عليه ، وأعلفه وأسقيه الماء وأخرز الدلو وأعجن ، وأنقل النوى على رأسي من أرض له على مسافة بعيدة قدرها الفقهاء بأربعة كيلو مترات » .

هذا هو الهدى النبوى فى تحديد الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة فى الأسرة الواحدة ، فالرجل يقوم أساساً على الإنفاق ، والمرأة تقوم أساساً على خدمة البيت وهذا لا يمنع أن يعاون كل منهما صاحبه فى مجال اختصاصه كلما استطاع .

الواجبات المشتركة بين الزوجين :

١ — تربية الأولاد على الآداب الإسلامية :

إن تربية الأولاد على الآداب الإسلامية مسئولية مشتركة بين الزوجين ويقع على الزوجة باعتبارها أقرب إلى نفوس الأبناء فى سنوات عمرهم المبكرة ، أن تغرس فيهم منذ الصغر الآداب الإسلامية التى حرص عليها الإسلام وأن تعودهم العمل بأحكام الدين ، والتحلى بمكارم الأخلاق وأن تكون لهم فى ذلك خير قدوة ، وعلى الزوج باعتباره القيم على الأسرة أن يساعد زوجته فى ذلك منذ طفولة أولادهما

ثم يتحمل دوره بالكامل عندما تتقدم بالأولاد السن ، وتزيد مسئوليته في هذا الجانب من شئون الحياة الزوجية – عن مسئولية زوجته وسوف نفرد باباً مستقلا لهذا الواجب المشترك نختم به هذا الكتاب إن شاء الله .

٢ – المحافظة على شرف الأسرة :

من حق الزوجين كل على صاحبه المحافظة على عرضه ومن واجبهما المحافظة على عرض أولادهما ، وذلك بالتزام كل منهما بتنفيذ قول الله تبارك وتعالى : « ... **والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** » .
(الأحزاب – ٣٥)

ولهذا كان على الزوجة ألا تدخل أحداً بيت زوجها إلا بإذنه وألا تسمح أن يطأ فراشه أحد غيره ، وألا تستقبل أحداً من الرجال إلا من تدعو الضرورة لاستقبالهم بإذنه مع الالتزام بالزى الإسلامى عند الاستقبال ، كما يحرم على كل منهما الخلوة إلا بالمحارم .

فقد روى البخارى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والدخول على النساء » ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » والحمو هم أقارب الزوج كأخيه وابن أخيه وعمه وهكذا . وقد شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاطهم بالزوجة فى غياب زوجها وخلوتهم معها بالموت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » .

والمحرم هو من حرم عليه الزواج من المرأة تحريماً مؤبداً لا تحريماً مؤقتاً :

والتحريم المؤبد يمنع المرأة أن تكون زوجة للرجل فى جميع الأوقات . أما التحريم المؤقت فهو ما يمنع المرأة من التزوج ما دامت على حالة خاصة قائمة بها ، فإن تغير الحال وزال التحريم المؤقت صارت حلالا . وأسباب التحريم المؤبد هى النسب والمصاهرة ، والرضاع وهى المذكورة فى قوله تعالى : **« حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً »** .
(النساء — ٢٣)

يتضح لنا من هذه الآية الكريمة أن المحرمات مؤبداً من النساء هن :

١ — الأمهات ٢ — البنات ٣ — الأخوات ٤ — العمات ٥ — الخالات ٦ — بنات الأخ ٧ — بنات الأخت ٨ — الأمهات بالرضاعة — ٩ — الأخوات بالرضاعة ١٠ — أمهات الزوجات ١١ — ابنة الزوجة التى دخل بها ١٢ — زوجة الابن لأن الحلائل جمع حليلة وهى الزوجة .

وقد أضافت الآية الكريمة : **« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا »** .
(النساء — ٢٢)

زوجة الأب ليصير عدد المحرمات تحريماً مؤبداً ثلاث عشرة ، ولا يشترط الدخول بزوجة الأب لتحريمها ، بل يكفى العقد عليها ، ويدخل فى الأمهات : الأم وأمهاتها وجداتها ، وأم الأب وجداته وإن علون ويدخل فى البنات بنت الصلب وبناتها .

ويدخل فى الأخت ، كل أنثى جاورتك فى أصليك أو فى أحدهما.

ويدخل فى العمة ، كل أنثى شاركت أباك أو جدك فى أصليه أو فى أحدهما ، وقد تكون العمة من جهة الأم ، وهى أخت أبى أمك .

والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك فى أصليها أو فى أحدهما ، وقد تكون من جهة الأب وهى أخت أم أبيك .

وبنت الأخ اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة ، وكذلك بنت الأخت فيدخل فى ذلك بنت الأخ وبناتها وبنت الأخت وبناتها .

ويدخل فى أم الزوجة ، أم أمها وأم أبيها وإن علت ولا يشترط فى تحريمها الدخول بها ، بل بمجرد العقد عليها يحرمها . ولهذا قال الفقهاء فى أحد أصول الفقه : (الدخول بالأمهات يحرم البنات والعقد على البنات يحرم الأمهات) .

ويدخل فى ابنة الزوجة التى دخل بها بنات بناتها وبنات أبنائها وإن نزلن لأن قوله تعالى : **« اللاتى فى حجوركم . . . »** هو وصف لبيان الشأن الغالب فى الربيبة وهى أن تكون فى حجر زوج أمها وليس قيداً إلا عند الظاهرية فإنه قيد . أى ابنة المرأة إذا لم تكن فى حجره لا تحرم عليه وسندهم فى هذا غير ثابت عند جمهور العلماء .

ويدخل فى زوجة الابن زوجة ابن ابنه وابن بنته وإن نزل .

ويدخل في الأمهات من الرضاعة أم المرضعة لأنها جدة له وأم زوج المرضعة لأنها جدة كذلك وأخت أم المرضعة لأنها خالة وأخت زوجها لأنها عمة وبنات بنيها وبناتها لأنهن بنات إخوته وأخواته .

ويدخل فى الأخت بالرضاعة الأخت بالرضاعة لأب وأم ، والأخت بالرضاعة لأم ولأخت بالرضاعة لأب سواء رضعت مع الطفل الرضيع أو قبله أو بعده .

أما المحرمات موقتاً فقد بينت الآية الكريمة (النساء — ٢٣) أخت الزوجة كما بينت السنة المطهرة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها .

وقد أضافت الشريعة الإسلامية للمحرمات موقتاً زوجة الغير ومعتدته رعاية لحق الزوج وذلك لقوله تعالى : « **والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم . . .** » . (النساء — ٢٤)

والمطلقة ثلاثاً : تحرم موقتاً على زوجها حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ، والزانية يحرم زواجها موقتاً حتى تحدث توبة ، والمشركة حتى تسلم ، والعبد المملوك للمرأة حتى يتحرر .

ولا تنظر الشريعة إلى المحرم موقتاً غير نظرتها للأجانب الذين لا يصح لهم الاطلاع على عورات النساء .

أما المحارم المؤبدات اللاتى سبق ذكرهن فينطبق عليهن قول الله تبارك وتعالى : « . . . **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . . .** » .

(النور – ٣١)

حيث قصد القرآن الكريم بهذه الآية المحارم المؤبدين جميعاً وذكر من ذكر على سبيل المثال لا الحصر .

فإذا خاطب الزوج امرأة أجنبية أو خاطبت الزوجة رجلا أجنبياً فعليهما أن يطبقا قول الله تبارك وتعالى : « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن** » .

(النور ٣٠ – ٣١)

وعلى الزوجة عند مخاطبة الأجنبى ألا ترقق الكلمات ، ولا تخرج الألفاظ رخوة متكسرة ، يفضن دلالة وأنوثة ونعومة ، فيطمع الذى فى قلبه مرض لقوله تعالى : « . . . **إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً** » .

(الأحزاب – ٣٢)

٣ – التزين والتحصين :

من الواجبات المشتركة على الزوجين أن يتزين كل منهما للآخر وأن يشبع كل منهما الآخر ،فعلى الزوجة أن تتزين لزوجها بما أحل الله من الماء والكحل والحناء والطيب والملابس الجميلة ، وغير ذلك من أنواع الزينة ، حتى لا يتطلع إلى سواها ، كما أن عليها أن تعتنى بنظافة نفسها وأولادها وطعامها وفراشها ، وأن تتحلى بما تشاء من الذهب والفضة والأحجار الكريمة دون قيد أو شرط ، وأن تمنح زوجها كل أنوثتها فإذا دعاها إلى فراشه لا تتخلف لحظة ، ما لم يكن عندها عذر شرعى من حيض أو نفاس أو مرض أو صيام مفروض ، وذلك تنفيذاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى الصبح » . (رواه البخارى)

وبالمثل فإن على الزوج أن يتزين لزوجته وأن يشبعها وطأ كما يشبعها قوتاً صيانة لها وذلك لقول ابن عباس رضى الله عنهما : « إنى أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى » . أما وجوب أن يشبعها وطأ كما يشبعها قوتاً فذلك من حقها المقصود بالآية الكريمة : « **وعاشروهن بالمعروف** » فالوطء هو عمدة المعاشرة بالمعروف ، ومقصودها كما سبق أن نقلنا عن روضة المحبين .

ولعل خير ما نبين به الحقوق المشتركة بين الزوجين أن نروى نماذج من وصايا الأبوين لأولادهم عند الزواج ، فتلك هى أخلص الوصايا لأنها تصدر إلى فلذات الأكباد ، وتحمل خلاصة تجارب

الآباء والأمهات ، كما نروى نماذج من خطابات أسعد الأزواج ، والزوجات إلى أهليهم وذويهم التى يعبرون فيها عن تجربتهم فى الحياة الزوجية السعيدة ؛ فتلك هى شهود العيان التى تصدق وهى تصدر من قلب الابن أو الابنة إلى أهلها وذويها :

١ – خطب عمرو بن حجر ملك كندة ، أم إياس بنت عوف ابن مسلم الشيبانى ولما حان زفافها إليه خلت بها أمها أمامة بنت الحارث فأوصتها وصية تبين فيها أسس الحياة الزوجية السعيدة وما يجب عليها لزوجها مما يصلح أن يكون دستوراً لجميع النساء فقالت : أى بنية : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه درجت ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس عنه ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

أى بنية : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكاً ، واحفظى له خصالا عشراً يكن لك ذخراً :

أما الأولى والثانية : فالخضوع له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة .

وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لمواضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبه .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله والإرعاء على عياله ، وملاك الأمر في المال حسن التقدير وفي العيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمراً ، ولا تفشين له سراً ، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مغتماً ، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً .

٢ – لما حمل ابن الأحوص ابنته نائلة إلى أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه وقد تزوجها نصحها أبوها ، يقول : أي بنيتي إنك تقدمين على نساء من نساء قريش هن أقدر على الطيب منك فاحفظي عني خصلتين : تكحلي وتطيبي بالماء حتى يكون ريحك ريح شن أصابه مطر (الشن القربة) .

٣ – أوصى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ابنته فقال : إياك والغيرة ، فإنها مفتاح الطلاق ، وإياك وكثرة العتب فإنه يورد البغضاء وعليك بالكحل فإنه أزين الزينة ، وأطيب الطيب الماء .

٤ – نصحت أم معاصرة ابنتها بالنصيحة التالية وقد مزجتها بابتسامتها ودموعها : يا بنيتي . . أنت مقبلة على حياة جديدة . . حياة لا مكان فيها لأمك وأبيك ، أو لأحد من إخوتك . . فيها ستصبحين صاحبة لزوجك لا يريد أن يشاركه فيك أحد حتى لو كان من لحمك ودمك :

كونى له زوجة يا ابنتى وكونى له أماً ، اجعليه يشعر أنك كل شيء فى حياته وكل شيء فى دنياه اذكرى دائماً أن الرجل أى رجل — طفل كبير — أقل كلمة حلوة تسعده ، لا تجعليه يشعر أنه بزواجه منك قد حرمك من أهلك وأسرتك . إن هذا الشعور نفسه قد شابه هو ، فهو أيضاً قد ترك بيت والديه وترك أسرته من أجلك ، ولكن الفرق بينه وبينك هو الفرق بين الرجل والمرأة ، المرأة تحن دائماً إلى أسرتها إلى بيتها الذى ولدت فيه ونشأت وكبرت وتعلمت .. ولكن لابد لها أن تعود لها نفسها على هذه الحياة الجديدة ، لابد لها أن تكيف حياتها مع الرجل الذى أصبح لها زوجاً وراعياً وأباً ، لأطفالها .. هذه دنياك الجديدة .

يا ابنتى ، هذا هو حاضرك ومستقبلك ، هذه هى أسرتك التى شاركتما أنت وزوجك فى صنعها ، أما أبوك فهو ماض . إننى لا أطلب منك أن تنسى أباك وأمك وإخوتك ، لأنهم لن ينسوك أبداً يا حبيبتى ، وكيف تنسى الأم فلذة كبدها ولكننى أطلب منك أن تحبى زوجك وتعيشى له وتسعدى بحياتك معه .

٥ — فى خطاب من زوج سعيد إلى والد زوجته يصف حياته الزوجية مع ابنته فيقول : يا عمى ويا أبى ويا صديقى : إنى أشكركم على أنكم يسرتم لى الزواج من ابنتكم الغالية ، فهى لا تتألم مهما قسوت عليها وهى مخلصة تتفانى فى خدمتى ، وإننى خلال هذه السنوات الطويلة ، بعيداً عن أهلى ووطنى لم أشعر بوحشة الغربة ، بسبب ما تحدث فى حياتى من التجديد المستمر ، وهى تعيننى على أداء الشعائر الدينية .

فأنا أهنئكم عن حسن تربيتها ، والغريب أن المديح مهما كان لا يجعلها تشعر بالغرور إنها تسلك مع أطفالها السلوك نفسه ليكونوا رجالا صالحين ، وجنوداً وقادة فى المستقبل . لقد جمعت بين عمل الدنيا وعمل الآخرة ، لا تفرط فى أحدهما على حساب الآخر . إنى مسرور من الزواج بها وهى مسرورة ، فأرجو أن تكونوا أنتم مسرورين أيضاً . إنها تهتم كثيراً بأطفالها وتعتنى بصحتهم وبأكلهم ولباسهم ونومهم ، وتقدم لهم الهدايا المناسبة بمناسبة نجاحهم فى الامتحانات ، جاراتها يحببنها كثيراً ، لأنها تهتم بأفراحهن وأحزانهن ، وتقدم لهن الهدايا فى المناسبات . فالحمد لله الذى وفقنى للزواج منها .

لقد زارنى رجل فى الدار له معاملة عندى ، وقدم لى رشوة وقال : هذه هدية ، فقالت له زوجتى : لو لم يكن لك عنده معاملة ، فهل كنت تعطيه هذه الهدية ؟ فدهش الرجل من جواب زوجتى ، وتمنى لو تزور زوجته وتوجهها ، وبعد سنة طلبنى هذا الرجل لأعمل عنده إنها تحثنى دوماً على دفع الزكاة وأزيد عليها بالصدقات .

إننى أكتب هذه الأسطر والدموع تترقرق فى عينى كثمن للمحبة الحقة لكم ولأمها ولجميع من ساهم فى تربيتها .

وإننى أكتفى بهذا القدر من الكتابة ، ولو أردت أن أوفيها حقها من وصف صفاتها الحسنة لاحتجت إلى مجلدات وإلى وقت كثير ، لذلك أردت بهذه الشذرات أن أعطى صورة مصغرة عن حياة هذه الإنسانة الصالحة والزوجة المؤمنة ، مقراً بذلك عن مقدار شعورى الصادق نحو كل من ساهم فى تربيتها ويسر لى الزواج منها .

٦ — فى خطاب زوجة لأمها بعد شهر العسل كتبت تقول :

أمى . . عدت اليوم إلى بيتى إلى عشنا الصغير الذى أعده زوجى ، بعد أن أمضينا شهر العسل . . كنت أتمنى أن تكونى قريبة منى . . يا أمى . . لأحكى لك كل شىء عن تجربتى فى حياتى الجديدة مع زوجى . إنه رجل طيب وهو يحبنى ، وأنا أيضاً أحبه ، ولكننى لم أعتد على طباعه . فى بعض الأحيان أشعر بأنى أعرفه منذ سنوات ، وفى أحيان أخرى أحس أنه إنسان غريب تماماً لا يمت إلى عالمى الصغير الذى نشأت فيه بأية صلة . . إننى أفعل كل ما فى وسعى لإرضائه . . تأكدى يا أمى أننى أحفظ كل نصائحك وأعمل بكل ما أوصيتنى به . . وخاصة تلك التى حدثتنى عنها بدموعك وابتساماتك . . إننى ما زلت أذكر كل كلمة . . كل حرف قلته لى وهمست به فى أذنى وأنت تحتضنينى ، وتضميننى إلى صدرك الحنون ليلة زفافى .

إننى ما زلت أذكر كل كلمة قلتها لى . . إننى أرى الحياة من خلال نظرتك أنت إليها . . إنك مثلى العالى . . ولا هدف لى سوى أن أصنع ما صنعته أنت بأبى الطيب وبنا نحن أبناؤك لقد أعطيتنا كل حبك وحنانك . . علمتنا معنى الحياة وكيف نعيشها . . وصنعت بيدك بذور الحب فى قلوبنا .

حمل لى بريد أمس تهنئتك الحلوة بمناسبة زفافى . . لقد بكيت وأنا أقرؤها يا أمى ، سمعت صوتك فى كل كلمة ، فى كل سطر منها ، شىء واحد افتقدته إنها قبلتك الحانية التى عودتنى عليها ، لقد انتهيت لتوى من إعداد طعام الغداء لزوجى ، فقد حان موعد

عودته من عمله لا تخافى يا أمى فقد أصبحت طاهية ماهرة . . إننى أشعر بسعادة عندما أجلس أمام زوجى إلى المائدة وأرقبه يأكل بشهية - الطعام الذى أعددته بيدى حتى إذا فرغ منه لم ينس أن يشكرنى على ما صنعت له . . لا تنسى أننى تلميذتك يا أمى . . أنت التى علمتنى الطهو . . أنت التى علمتنى أن أقصر طريق إلى قلب الرجل هو معدته .

إننى أسمع المفتاح يدور فى قفل الباب لابد أنه زوجى ، . . إنه يريد أن يقرأ رسالتى لك ، يريد أن يعرف ماذا أكتب لأمى ؟ يريد أن يشاركنى هذه اللحظات السعيدة التى أقضيها معك بروحى وفكرى . . إنه يطلب منى أن أترك له القلم وأفسح له مكاناً يكتب لك ، أقبلك يا أمى وأقبل أبى وإخوتى وإلى اللقاء .

* * *

لقد رأينا فى الرسائل والوصايا السابقة أم الزوجة وأبا الزوجة والعروسين يتكلمون فى أمر الحقوق والواجبات بين الزوجين من واقع خبراتهم العملية المخلصة لأبنائهم وأنفسهم ولعمرى إن أصدق الأنبياء ، ما كان وصفاً لأمر واقع ، من مخلص أمين فليتمحص العروسان . هذه النماذج من الرسائل ، وليدركا معانيها ، ليضعا أيديهما على مفتاح السعادة الزوجية وسر دوامها من واقع التجربة العملية للأسرة السعيدة .

ويمكننا أن نؤشر للقارئ على بعض الحكم المأخوذة من هذه الرسائل التى تعالج حياة العروسين فى أغلب شئونهما وهى :

أولا : التعايش فى العش الجديد :

إن أول خاطر يمر بذهن العروسين هو مواجهة التعايش فى العش الجديد ، فكلا العروسين قد ترك العش الذى فيه درج إلى وكر جديد لم يعرفه ، وقرين جديد لم يألفه ، كما تقول أم إياس بنت عوف ابن مسلم الشيبانى ، وإن ضمان الألفة بين القرينين الجديدين باتباع عدة أمور :

١ — أن يكون كل من الزوجين مخلصاً للآخر إخلاص العبد للسيد ، كونى له أمة يكن لك عبداً فلا يتعالى طرف على طرف ، بل يكون كل منهما آلف من الآخر جانباً حتى لا يشعر منه برهبة ولا يحس فى معاشرته بوحشة : « . . . **واخفض جناحك للمؤمنين** » . وإذا كان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، فإن الزوج والزوجة هما البنيان نفسه ، والتآزر بينهما والتواد هو صفة ملازمة لكل بنيان ناجح من هذا القبيل . إن بنيان الأسرة هو أشبه مايكون ببنيان الجسد الواحد والتعاون والتواد بين أفرادها لابد وأن يكون كالتعاون والتواد بين أعضاء الجسد الواحد ، فالعين ترى الطعام والنفس تشتهيه فتتحرك اليد لتنقله إلى الفم حيث يمضغه ، ويرسل به إلى المعدة حيث تهضمه وتقتدى بها سائر الأعضاء دون كلل أو ملل الكل يؤدى دوره لتحقيق حاجة الجسد فى سعادة وسرور . بهذا الأداء ، لا يمن عضو على عضو ولا يتعالى ولا يتردد فى سرعة إجابة طلب العضو الآخر .

وهكذا الزوجان فهما أعمدة بناء الأسرة المؤمنة ، وإذا كان القرآن الكريم فى الآية ٨٨ من سورة الحجر يوصى المؤمنين بقوله :

« . . . واخفض جناحك للمؤمنين » فإن الزوجين هما أكثر المؤمنين قرباً ، وأوجبهم للالتزام بهذه الآية الكريمة .

إن كل ما وصت به أم إياس ابنتها بالخضوع له وحسن السمع والطاعة ، والتفقد لمواضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه على قبيح ولا يشم إلا أطيب ريح هو من قبيل دفع ابنتها لتكون من زوجها كأى عضو من أعضاء جسمه تعمل أوتوماتيكياً كل ما يدخل على قلبه السرور ويحقق له الراحة والهدوء ، فهى تتفقد وقت منامه ووقت طعامه ، وتحافظ له على ماله وتحسن رعاية عياله وتحفظ له سره دون أن تشعر وهى تؤدى ذلك كله أنها تحمل عبئاً ، بل تؤدى واجباً طبيعياً ، وإذا كانت أم إياس قد أرادت ذلك من بنتها لزوجها فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أراد ذلك من كل زوج لزوجته ، فهذه الواجبات جميعاً مشتركة بين الزوجين وليست وقفاً على واحد منهما دون الآخر إلا أن مجال أداء هذه الواجبات يختلف وفقاً لاختلاف تخصص الزوجين فى بناء الحياة الزوجية .

٢ – إذا كان على الزوجة أن تقنع بما يوفره لها زوجها من رزق رزقه الله به ، فإن على الزوج أن يقنع بما توفره له زوجته من راحة .

٣ – إذا كان على الزوجة أن تسمع وتطيع زوجها فى كل أمر لا يغضب الله ، فإن على الزوج أن يسمع لزوجته ويطيعها فى كل أمر لا يغضب الله ولا يضر بالأسرة ، لأن اتحاد الهدف بين الزوجين وهو

تحقيق السعادة لكليهما مع الالتزام بإرضاء الله تعالى فى كل ما يقولان ويفعلان يتبعه حتماً اتحاد الفعل والفكر بينهما ، فيبدوان وكأن كلا منهما يعمل ما يريده الآخر دون أدنى اعتراض ، بالضبط كما تتبادل أعضاء الجسم الواحد الخدمات دون تأفف أو تمنع أو تأخير لأنها جميعاً أعضاء فى جسد واحد .

إن أول شقاق يمكن أن يحدث بين الزوجين يقع فى اللحظة التى يتبع أحدهما هواه ، ولا يلتزم باتباع أمر الله ، وإن زوال مثل هذا الشقاق يكون أيسر ما يكون فور ترك الهوى والرجوع إلى الله .

٤ - إذا كان على الزوجة أن تتفقد مواضع عين زوجها وأنفه . فلا تقع عينه منها على قبيح سواء فى زينتها أو زينة منزلها ، ولا يشم منها إلا أطيب ريح سواء فى نفسها أو فى منزلها ، فإن ذلك لأنها سكنه الذى تسكن برؤيتها نفسه ، ولأن منزلها هو راحته التى يستظل بها بعد عناء العمل ، فيسترد قوته وينعم جسده .

وكذلك فإن على الزوج أن يتفقد مواضع عين زوجته وأنفها ، فلا تقع عينها منه على قبيح سواء فى زينته أو فى عمله أو فى لهوه ، ولا تشم منه إلا أطيب ريح سواء فى زينته أو فى عمله أو فى مرحه ولهوه فإن تزين لها وتطيب ، فذلك لأنه سكنها الذى تسكن برؤيته ، وبالقرب منه ، نفسها ، فلا تنظر إلى غيره ، وإن خشى الله واتقاه فى عمله فإن ذلك هو رزقها الذى يطيب لها حلالا ، ويسعدها زلالا ، وإن التزم السنة فى مرحه ولهوه فإن ذلك هو سعادتها التى ينشرح لها صدرها ما دام هذا المرح واللهو طيباً مباحاً .

٥ – إذا كان على الزوجة الاحتراس فى مال زوجها والإرعاء على عياله ، فذلك لأن ماله هو رزقها ورزق عيالهـا الذى تجب فيه المحافظة ويحرم فيه التبذير ، ولأن عياله هم عيالهـا الذين أودعهم الله فى يديها ، واستوجب فيهم حسن الرعاية والتربية والتوجيه .

وكذلك فإن على الزوج ما على الزوجة من الاحتراس فى ماله والإرعاء على عياله فهو أولى بالمحافظة على ماله فلا ينفقه إلا فى أمر الله ، وعلى عياله فلا يغفل شأناً من شئونهم ولا يهمل ولا يجهل واجباً من واجباتهم .

٦ – وإذا كان على الزوجة ألا تفرح بين يدى زوجها إذا كان مغتماً ، ولا تواجهه بالكآبة بين يديه إذا كان فرحاً ، فإن الزوج أحرى بذلك وأولى ، فلا يفرح بين يدى زوجته إذا كانت مغتمة ولا يواجهها بالكآبة إذا كانت فرحه ، ذلك لأن وحدة الشعور والتعاطف بين الزوجين من ألزم اللوازم لوحدة الأرواح .

فإذا كانت المشاركة فى الأفراح والأحزان فريضة على المسلم لأخيه المسلم ، فهى أوجب ما تكون بين الزوج وزوجته .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » .

٧ – وإذا كان على الزوجة أن تتجنب الغيرة وكثرة العتب لتستقر حياتها الزوجية ، فإن ذلك على زوجها أوجب لأنه على كبح جماح عواطفه أقدر ، ولحسن ضبطه للألفاظ والأحكام أعلم فلا يجوز له

أن يجرح مشاعرها بظن سيء أو لفظ قبيح ، بل عليه أن يداوى ويطيب ، بأفق أوسع وقلب أرحب .

٨ — وإذا كان على الزوجة أن تكون لزوجها زوجة وأماً ، فعلى الزوج أن يكون لزوجته زوجاً وأباً ، فهو كل شيء فى حياتها هو مستقبلها وأهلها ورب أسرتها هى ترعاه داخل البيت رعاية الأم لابنها ، ترتب له فراشه ، وتنظم له طعامه ولباسه ، فإذا استيقظ فى الصباح صحبته إلى الحمام تساعده فى نظافة جسمه ولبس ثيابه ، ثم إلى غرفة الطعام تشاركه طعام الإفطار الذى أعدته بيديها ، باسمة راضية ، مسرية ومشجعة ، حتى تهيئه إلى مواجهة أعمال اليوم الجديد بثقة واعتداد ، فإذا خرج ودعته بقبلة وأهدته وردة أو زهرة ، أو طيبته بأحسن طيب ، فهى زوجه الحنون ، أحن عليه من أمه الرؤوم .

وكذلك الزوج فهو كل شيء فى حياة زوجته يوفر لها المسكن والملبس والمطعم ، ويدفع عنها أسباب كل أذى أو ضيق ، يشاركها الشعور والعواطف فى حياتها ، فهو أب لأولادها ، يشعرها بحنان الأب ورعايته وحب الزوج وعنايته ، فى كل حركة من حركاته ، وكل سكنة من سكناته ، يقبلها قبلة حنان إذا دخل عليها عائداً من عمله ، ويضمها إلى صدره فى مودة ولطف كلما أحس بحاجتها إلى الحنان ، أو فاض به الشوق إلى الحنان ، فالقبلة والضم هما رسولا المحبة والسلام ، ومظهر الألفة والوئام بين الزوجين ، بهما تزول كل جفوة ويحل محلها أحلى لهفة .

٩ — وإذا كان على الزوجة أن تنبه زوجها إلى تنفيذ ما أمره الله

من رعاية لأهله وخشية فى عمله فإن على الزوج أيضاً أن ينبه زوجته إلى تنفيذ ما أمرها الله من طاعة لربها ، ورعاية لأهلها ، وخشية فى بيتها :

« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » . (طـه - ١٣٢)

فإذا تعاون الزوجان على طاعة الله والالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه كان ضمان رزقهما وحسن عاقبتهما على الله رب العالمين .

ثانياً : حسن الجوار ورعاية ذوى القربى وإخوة الإسلام :

إن الخاطر الثانى الذى يمر بأذهان العريس والعروس هو مواجهة التعايش فيما بينهما كزوج متحد وبين ما استجد على كل منهما من أهل فقد اكتسب العريس بالزواج أهل زوجته فصاروا له أهلا ، واكتسبت العروس بالزواج أهل زوجها فصاروا لها أهلا .

وكذلك التعايش مع من يستجد عليهما من الجيران ، حيث غالباً ما يستقر الزوجان فى منزل خاص بهما غير منزل أسرة كل منهما ، وقد يكون مستقرهما فى وطن غير وطنهما ، ولابد لهما من التعايش كزوج متحد مع هؤلاء الأهل والجيران الجدد ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

لقد أحسسنا ونحن نقرأ رسالة الزوج السعيد لوالد زوجته سعادته الغارمة بأنه لم يشعر خلال السنوات الطوال التى عاشها مع زوجته

بعيداً عن أهله ووطنه بوحشة الغربة ، بسبب ما تحدثه زوجته فى حياته من التجديد المستمر ، وحسن جيرتها لجيرانه ، فى هذا البلد البعيد فهن يحببنها كثيراً لأنها تهتم بأفراحهن وأحزانهن ، وتقدم لهن الهدايا بالمناسبات . إن هذه الرسالة تشخص للعروسين السبيل إلى كمال السعادة وتمامها .

فإن التجديد المستمر فى حياة الأسرة يقلل شعورهما بالغربة سواء الغربة عن الوطن ككل أو الغربة عن منبت العروسين حيث نشأ كل منهما وترعرع ، ويحول حياتهما فى عشهما الجديد إلى روضة من رياض الجنة .

إن الإنسان لا تكتمل سعادته إذا اقتصرت على الانسجام والمودة بينه وبين زوجته وأولاده ولكن تمام السعادة يكون فى حسن التفاهم والوئام مع الأهل والجيران ، بل ومع بنى الوطن وبنى الإنسان فذلك هو تمام الإحسان بالرضى فى الحياة ، لأن الإنسان فى أصله هو خليفة الله فى الأرض لم يخلق لنفسه ، وإنما خلق ليعمر الأرض ، ويخلف الله فى إدارتها ، فإذا اقتصر اهتمام الزوجين على رعايتهما لشئونهما وشئون أولادهما ، كان شعورهما بالسعادة ناقصاً لا محالة ينقصه تقدير الناس من حولهم ، وحب الناس لا يأتى إلا بفتح الصلات معهم ، ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم ، وحينئذ تشعر الأسرة أنها خلية حية فى وسط جسم حي ، يحس بإحساسها وتحس بإحساسه ، فتسعد وتهنأ .

أما إذا انعزلت الأسرة عن الناس ، وأولادهم بالصلة هم الأقربون والجيران ، فإنها مهما بذلت من جهد ليسعد أفرادها ، فستبقى منعزلة

وكأنها خلية حية في وسط جسم ميت ، لا تحس بها ، ولا تحس به ، فتبقى سعادتها ناقصة مبتورة ، إذ شتان ما بين الشعور بالصلة بالحياة ، والشعور بالانقطاع عن الحياة .

ولذلك كان من أهم أسباب السعادة الزوجية أن تحرص الأسرة الجديدة على تقوية صلاتها بأهلها ، أهل الزوج وأهل الزوجة على السواء ، فتعم الفرحة في الأسرة الكبيرة كل النفوس ويسعد الآباء والأعمام والأخوال ، كما تسعد الأمهات والعمات والخالات . كما يلزم أن تحرص الأسرة الجديدة على تقوية صلاتها بجيرانها ، ولو كانوا في وطن غير وطنهم ، لأن الجار هو وصية جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو أقرب الناس بعد زوجه وولده إليه يراه كل صباح وكل مساء ، أكثر مما يرى الأهل والأحباب ، فإذا لم تنتظم المودة والألفة بين الأسرة وجيرانها شعرت بمرارة القطيعة وجفوة الوحدة بدلا من حلاوة السعادة بالمودة وطيب العشرة ، وتلك قمة من قمم السعادة في الحياة الزوجية .

وقمة أخرى هي قوة رابطة الأسرة الجديدة بالعالم الإسلامي الذي هو وطنها الكبير لقوله تعالى : « **إنما المؤمنون إخوة . . .** » . فعلى الزوجين أن يغرسا في نفسهما ، وفي نفوس أولادهما حب المسلمين كافة ومشاركتهم في كل عمل يهدف إلى الدفاع عن الإسلام والمسلمين أو إلى توطيد كلمة الحق والدين ، فإن ذلك إذا قامت به الدولة كان فرض كفاية على كل رجل مسلم وامرأة مسلمة . أما إذا عجزت إمكانيات الدولة عن القيام بشيء من هذه الواجبات ، فإنه يصبح

فرض عين على كل رجل وامرأة . ومن ثم كان لزاماً على كل زوجين سعيدين أن يتعرفا على واجباتهما نحو إخوانهم المسلمين على طول الوطن الإسلامى وعرضه ، وأن يعدا أنفسهما وأولادهما للإسهام فى كل عمل جليل يفرضه الدين الحنيف على أبنائه فى الإسلام ، فإن فى ذلك عزة ورفعة للأمة الإسلامية يسعد لها كل قلب مؤمن صالح ، كل السعادة ويهنأ بها كل الهناءة : والأسرة المسلمة خلية من خلايا هذا الوطن الإسلامى الكبير يسعدها سعادته ويعزها عزه ، وخير سعادة وعزة هى ما جاءت بالمشاركة فى واجباتها ومسئولياتها لما فى ذلك من احترام للنفس وتقدير للذات .

ثالثاً : تربية الأولاد :

إن الخاطر الثالث الذى يمر بأذهان العريس والعروس عند الزواج هو التفكير فى ذريتهما وكيف يمكن أن تكون ذرية صالحة ، تشع فى قلبيهما السعادة ، وتملأ بيتهما بالفرح والهناءة ؟

لقد صدرنا هذا الكتاب ببيان أن كثرة النسل هى الحكمة الربانية فى تشريع الزواج سواء للإنسان أو النبات أو الحيوان ، وأن كل هؤلاء مسيرون لإنفاذ هذه الحكمة الربانية السامية :

« والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » . (الذاريات — ٤٧)

مسيرون بالغريزة الجنسية التى تدفع الذكر والأنثى للسعى إلى الزواج ، ومسيرون بحب النوع الذى يدفعها للمحافظة على الجنس وبحب الأبناء وفلذات الأكباد ، والدفاع عنهم بكل مرتخص وغال

حتى إننا لنرى من الحيوانات من يضحى بنفسه وهو يقاتل أعداءه دفاعاً عن صغاره . كما أكدنا على أن الاهتمام بتربية الأولاد واجب مشترك على الزوجين السعيدين .

ونظراً لما فى تربية الأولاد من منزلة رفيعة فى الإسلام ، وصلة وثيقة بالسعادة الزوجية للأسرة المسلمة ، فهى الحكمة الربانية فى خلق هذه الأسرة ، وهى الوسيلة الربانية فى الحفاظ على هذه الأسرة قوية سعيدة عزيزة ، نظراً لما فى هذه التربية من أهمية خاصة تعدل موضوع الكتاب كله ، فقد رأينا أن نفرد لها باباً مستقلا نجعله مسك الختام .

* * *

الفصل الحادى عشر

تربيـــة الأولاد[1]

حب الأبنـــاء :

لقد أودع الله فى نفوس الأبوين حباً جارفاً لأولادهما ، لا يعادله فى هذه الدنيا حب ، فهم فلذات أكبادهم ونور قلوبهم وبيوتهم ، وإنك لتلحظ ذلك فى اهتمام الوالدين البالغ بأولادهم وشفقتهم الدائمة عليهم ، ورحمتهم الرءومة بهم .

ولقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة فى آيات بينات تحدد أسباب هذا الاعتزاز والحب الذى يختص به الوالدان أبناءهم فقال جل وعلا :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا . . . » . (الكهف — ٤٦)

« . . . وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً » .

(الإسراء — ٦)

« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » . (الفرقان — ٧٤)

---

(١) ويراجع فى ذلك — بتوسع واستفاضة كتاب (تربية الأولاد فى الاسلام) للأستاذ عبد الله ناصح علوان ط ٣ — ج١ ، ج٢ .

« . . . رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي ذريتي . . . » .

(الأحقاف – ١٥)

فالأبناء زينة في الحياة الدنيا، وقوة وعزة ومنعة، فضلا عن أنهم قرة الأعين وراحة النفوس . هذه حقائق ثلاث تقررها آيات محكمات من لدن حكيم خبير ونحس جميعاً دقة التصوير فيها،وصدق التعبير .

ومن ثم كان لزاماً أن يعتني الزوجان عناية خاصة بتربية أولادهما ، حتى تتحقق لهما هذه السعادة وهذه الزينة فتصبح حياتهما الزوجية نعيماً وافراً ، وفرحاً دائماً .

الاهتمام(*) بالولد من قبل أن يولد :

١ – يبدأ اهتمام الشريعة بالابن قبل أن يولد ، حيث يحض رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عند اختيار أحد الزوجين للآخر أن يكون الانتقاء لشريك الحياة على أساس التقى والصلاح والأصالة والشرف ، فذلك أدعى أن يكون الإنجاب من هذا الزواج أولاداً مفطورين على معالي الأمور ، ومتطبعين بالأخلاق الإسلامية القديمة ، والعادات الأسرية الأصيلة ، فهم يرضعون من والديهم الكريمين ألبان المكارم والفضائل ويكتسبون بشكل عفوي خصال الخير ومكارم الأخلاق .

(*) ذكر وأنثى .. فكل مولود ولد .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس معادن فى الخير والشر ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » رواه الطيالسى وابن منيع والعسكرى عن أبى هريرة .

ويقول : « تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن » رواه ابن عدى وابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها مرفوعاً .

ويقول : « تزوجوا فى الحجر الصالح فإن العرق دساس » رواه ابن عدى فى الكامل مرفوعاً وقد أجاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن سؤال لأحد الأبناء عن حق الولد على أبيه بقوله : « أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه القرآن » .

وهذا الانتقاء الذى حضت عليه الشريعة الإسلامية يعد اليوم من الأصول العلمية ، والنظريات التربوية فى العصر الحديث ، فقد أثبت علم الوراثة أن الطفل يكتسب صفات أبوية الخلقية والجسمية ، والعقلية منذ الولادة .

١ — يحض رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاغتراب فى الزواج حتى يكون النسل قوياً ، وهو ما يتفق مع ما أثبته العلم التجريبى بنظرية التهجين ، وقد ورد فى الأثر الشريف : « ابنة العم أصبر والغرائب أنجب ولا يجيد الطعن كابن الأعجمية » ، فالمولود يكون قوياً فى خصائصه لأنه يأخذ خصائص القوة من أصلين مختلفين وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغتربوا لاتضووا » أى لاتهزلوا وتضعفوا ، ويقول : « تزوجوا الغرائب ، فإنها تلد النجائب » .

٣ – من اهتمام الشريعة بالمولود قبل أن يولد إباحة الفطر للحامل فى شهر رمضان إذا شعرت أن الصيام يؤثر عليها وعلى طفلها ، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، وعن الحبلى والمرضع الصوم » رواه الخمسة (نيل الأوطار ج ٤) .

الاهتمام بالمولود :

١ – إن أول مظاهر الاهتمام بالمولود كما أوضحته الشريعة الإسلامية هو إدخال المولود له السرور على نفوس إخوانه وأحبابه ، بأن يزف لهم البشرى بالمولود الجديد ، وأن يردوا عليه مهنئين وداعين له ولمولوده عسى أن يتقبل الله دعاءهم ، فيرعى المولود ويكتب له العمر المديد والعيش السعيد . ولقد جاءت البشرى بالولادة من الله ومن ملائكته لبعض أنبيائه دليلا على أنها شريعة من شرائع الإسلام :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » .

(هود ٦٩ – ٧١)

« فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى . . . » . (آل عمران – ٣٩)

« يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » .

(مريم – ٧)

وفى الدعاء للمولود يقول الحسن البصرى لمن يسأله : « قل بورك لك فى الموهوب ، وشكرت الواهب ، ورزقت بره ، وبلغ أشده » .

ويبنغى أن تكون البشرى بالمولود والتهنئة به سواء كان ذكراً أو أنثى ،فكراهية البنات جاهلية بغيضة ندد بها القرآن الكريم .

« وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » . (النحل ـ ٥٩)

وقد روى أصحاب السنن والإمام أحمد وابن حبان عن النعمان ابن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضم أصابعه » رواه مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنهما .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن وسقاهن وكساهن من جدته (من ماله) ، كن له حجاباً من النار » .

٢ ـ التأذين والإقامة فى أذنى المولود :

يسن التأذين فى أذنه اليمنى والإقامة فى أذنه اليسرى حين الولادة مباشرة لما روى أبو داود والترمذى عن أبى رافع أنه قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذن فى أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن النبى صلى الله عليه وسلم أذن فى أذن الحسن بن على يوم ولد ، وأقام فى أذنه اليسرى » .

ويقول الإمام ابن القيم عن الحكمة فى التأذين والإقامة فى أذنى المولود هى : « أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلمات النداء العلوى المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته ، والشهادة التى هى أول ما يدخل بها فى الإسلام ، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا ، كما يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها ، وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه وتأثره به وإن لم يشعر مع ما فى ذلك من فائدة أخرى : وهى هروب الشيطان من كلمات الأذان ، وهو كان يرصده حتى يولد ، فيسمع شيطانه ما يضعفه ويغيظه أول أوقات تعلقه به ، وفيه معنى آخر : وهو أن تكون دعوته إلى الله وإلى دينه الإسلام — وإلى عبادته ، سابقة على دعوة الشيطان ، كما كانت فطرة الله التى فطر الناس عليها ، سابقة على تغيير الشيطان لها ، ونقله عنها إلى غير ذلك من الحكم » .

ويدل على صحة هذه المعانى التى ذكرها ابن القيم اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبلاغ عقيدة التوحيد والإيمان ، ومطاردة الهوى والشيطان إلى المولود من حين أن يشم رائحة الدنيا ويتنسم نسائم الوجود .

٣ — التحنيك عند الولادة :

والتحنيك هو أن تمضغ تمرة ثم تدلك حنك المولود بها ، وذلك بوضع جزء من الممضوغ على الإصبع ، وإدخال الإصبع فى فم

المولود ، ثم تحريكه يميناً وشمالا بحركة لطيفة ، حتى يتبلغ الفم كله بالمادة الممضوغة .

وإن لم يتيسر التمر فيكون التحنيك بأية مادة حلوة كالمعقود أو راثب الممزوج بماء الزهر ، ولعل الحكمة من التحنيك هي تقوية عضلات الفم بحركة اللسان مع الحنك مع الفكين بالتلمظ حتى يتهيأ المولود لضم الثدي ، وامتصاص اللبن بشكل قوي ، وحالة طبيعية .

ومن الأفضل أن يقوم بعملية التحنيك من يتصف بالتقوى ، والصلاح تبركاً ، وتيمناً بصلاح المولود وتقواه .

جاء في الصحيحين من حديث أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه قال : ولد لي غلام فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فسماه إبراهيم وحنكه بتمرة ، ودعا له بالبركة ، ودفعه لي .

٤ ـ حلق رأس المولود :

روى يحيي بن بكير عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بحلق رأس الحسن والحسين يوم سابعهما فحلقا وتصدق بوزنه فضة .

ولعل في إزالة شعر رأس المولود تقوية له ، وفتحاً لمسام الرأس ، وتقوية كذلك لحاسة البصر والشم والسمع كما قال ابن القيم في كتابه « تحفة المولود » .

أما أن يحلق من رأسه مواضع من ها هنا وها هنا أو أن يحلق وسطه ويترك جوانبه أو أن يحلق جوانبه ويترك وسطه أو أن يحلق

مقدمه ويترك مؤخره فذلك هو القزع الذى نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القزع » .

ولعل الحكمة فى النهى عن القزع هى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حريصاً أن يظهر المسلم فى المجتمع بمظهر لائق فى مظهره وهندامه ، وحلق بعض الرأس وترك بعضه يتنافى مع جمال المسلم ومع شخصيته الإسلامية التى يتميز بها عن بقية الملل والمعتقدات .

٥ – تسميته بأحسن الأسماء وأجملها :

تكون تسمية الطفل من قبل أن يولد أو حين يولد أو فى اليوم السابع أو قبل ذلك أو بعده ، ففى صحيح مسلم من حديث سليمان ابن المغيرة عن ثابت بن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولد لى الليلة غلام سميته باسم إبراهيم » .

كما روى أصحاب السنن عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل غلام رهين بعقيقته ، تذبح عنه يوم سابعه ، ويسمى فيه ويحلق رأسه » .

ومن السنة اختيار أحسن الأسماء وأجملها ، حتى لا يتأذى الولد فى حياته بالنداء عليه باسم يكرهه ذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » رواه أبو داود بإسناد حسن عن أبى الدرداء .

وأفضل الأسماء هى الأسماء التى تسمى بها الأنبياء والأسماء المعبدة لله ، كعبد الله وعبد الرحمن مع وجوب تجنب الأسماء المعبدة لغير الله مثل عبد العزى ، وعبد الكعبة والأسماء التى فيها تميع وتشبه وغرام مثل هيام وهيفاء ونهاد وسوسن وميادة ونار يمان وغادة وأحلام ، وما شابهها والأسماء المشتقة من كلمات فيها تشاؤم حتى يسلم الولد من سوء هذه التسمية وشؤمها مثل حزن وحمرة والأسماء المختصة بالله تعالى سبحانه وتعالى مثل الأحد والصمد والخالق والرازق والأسماء التى فيها يمن أو تفاؤل حتى لا يحصل كدر عند مناداتهم وهم غائبون بلفظ : لا . مثل أفلح ونافع . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها : حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة » رواه أبو داود والنسائى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل يسمى بملك الأملاك ، لا ملك إلا لله » رواه مسلم فى صحيحه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحاً ولا نجيحاً ، ولا أفلح ، فإنك تقول : أثم هو ؟ فلا يكون ، فيقول : لا ، إنما هى أربع فلا تزيدن على » رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن سمرة بن جندب .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغير الأسماء القبيحة والتى لا تتفق مع هذه النماذج فقد روى أبو داود فى سننه أن هانئاً لما وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مع قومه ، كانوا يكنونه

بأبى الحكم ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « إن الله هو الحكم وإليه الحكم ، فلم تكنى أبا الحكم ؟ فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شيء أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسن هذا ، فما لك من ولد ؟ قال : لى شريح ومسلم ، وعبد الله ، فقال : فمن أكبرهم ؟ قال : شريح . قال : فأنت أبو شريح » .

كما روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير اسم العاصى ، وعزيز ، وعتلة ، وشيطان ، والحكم ، وغراب ، وحباب وسمى حرباً سلماً ، وسمى المضطجع المنبعث ، وسمى بنى الزينة بنى الرشدة ، وسمى بنى مغوية بنى رشدة . قال أبو داود : تركت أسانيدها اختصاراً .

ولا شك أن الأسماء الحسنة والتى تتناسق مع العقيدة الإسلامية ، يكون لها أطيب الأثر فى نفس المسمى ، فضلا عن أنها تميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم ، فى كل مظاهر حياتها لتكون دائماً خير أمة أخرجت للناس ، تهدى البشرية إلى نور الحق ومبادئ الإسلام .

يقول الله تبارك وتعالى فى محكم آياته : « **ولا تنابزوا بالألقاب** » . (الحجرات — ١١)

وذلك لما للألقاب الذميمة من أثر كبير فى انحراف الولد النفسى والاجتماعى ، ويدلنا حرص القرآن والسنة على تجنيب الولد مثل هذه الآثار منذ ولادته باختيار أحسن الأسماء وأحبها إلى الله تعالى .

٦ ــ العقيقة :

العقيقة هي ذبح الشاة عن المولود يوم السابع من ولادته .

روى الإمام أحمد والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عن الغلام شاتان مكافئتان (مستويتان فى السن ، ومتشابهتان فى الشكل) وعن الجارية شاة » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مع الغلام عقيقة ، فأهريقوا عنه دماً ، وأميطوا عنه الأذى » رواه البخارى فى صحيحه عن سلمان ابن عمار الضبي .

وروى الإمام أحمد والترمذى عن أم كرز الكعبية أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العقيقة ؟ فقال : « عن الغلام شاتان ، وعن الأنثى واحدة ، ولا يضركم ذكراناً أم إناثاً » أى الذبائح . والعقيقة سنة مستحبة عند جمهور الأئمة والفقهاء إلا فقهاء الحنفية فقد أنكروا مشروعيتها مستندين إلى أحاديث وجد لها باقى الأئمة والفقهاء معانى لا تتعارض مع هذه السنة المستحبة .

ووقت العقيقة : هو اليوم السابع لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل غلام رهينة بعقيقته ، تذبح عنه يوم سابعه ، ويسمى فيه ويحلق رأسه » رواه أصحاب السنن .

ولكن هناك أقوالا تفيد أن التقيد باليوم السابع ليس من باب الإلزام وإنما هو على وجه الاستحباب وإلا فلو ذبح عنه فى اليوم الرابع أو الثامن أو العاشر أو ما بعده أجزأت العقيقة ، كما أن هناك

أقوالا تفيد بجواز العقيقة بشاة واحدة للصبي واستدلوا على ذلك بأن عقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين كانت كبشاً لكل منهما .

ومن السنة عدم كسر عظام العقيقة ، بل يكون تقطيعها من المفاصل حتى تكون القطع التى توزع منها كبيرة كاملة وأن يكون فى ذلك تيمناً وتفاؤلا بسلامة أعضاء المولود وصحتها وقوتها ، فالعقيقة قربان يتقرب بها المولود إلى الله فى أول لحظة يستنشق فيها نسائم الحياة ، وهى فدية يفدى بها المولود من المصائب والآفات كما فدى الله إسماعيل عليه السلام بالذبح العظيم فضلا عن إظهار الفرح والسرور بخروج نسمة مؤمنة يكاثر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمم يوم القيامة ، وتمتين الروابط بين أبناء المجتمع لاجتماعهم على موائد الطعام ابتهاجاً بقدوم المولود الجديد ، وإرفاد المجتمع برفد جديد من مبادئ العدالة الاجتماعية حيث يكون للفقراء نصيب من هذه العقيقة فحكمها حكم الأضحية من ناحية الأكل منها ، والتصدق ، والإهداء ويزاد بإهداء جزء منها إلى القابلة لإدخال السرور عليها للحديث الذى رواه البيهقى عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر فاطمة رضي الله عنها فقال : « زنى شعر الحسين ، وتصدقى بوزنه فضة وأعطي القابلة رجل العقيقة » .

٧ ـ الختان :

الاختتان هو قطع القلفة « أى الجلدة » التى على رأس الذكر والجزء الأعلى من البظر عند الأنثى ويسمى فى حالة الأنثى الخفاض

وهو واجب عند معظم الأئمة والفقهاء على الذكر وسنة ومكرمة — للإناث . أما باقى الأئمة ومنهم الحسن البصرى وأبو حنيفة فقد رأوا أنه سنة للرجال والنساء على السواء ، وحجتهم فى ذلك ما رواه الإمام أحمد عن شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء » .

أما من قالوا بوجوبه على الرجال فحجتهم هى قول الله تعالى : **« ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً . . . »** . (النحل — ٢٣)

وقد جاء فى رواية البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : « أن إبراهيم عليه السلام اختتن وهو ابن الثمانين سنة » ، وقد روى الترمذى والإمام أحمد عن أبى أيوب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من سنن المرسلين : الختان ، والتعطر ، والسواك ، والنكاح » .

وقد عللوا وجوبه بأنه شعار الدين وبه يعرف المسلم من الكافر ، وأن الأقلف معرض لفساد طهارته وصلاته لأن القلفة تستر الذكر كله ، فيصيبها البول ، ولا يمكن الاستجمار لها .. فصحة الصلاة موقوفة على الختان ، ولهذا منع كثير من السلف والخلف إمامته ، أما صلاته مع نفسه فيعد معذوراً كمن معه سلس البول .

هذا فضلا عما فى الختان من فوائد صحية للمولود حيث يقول الدكتور صبرى القبانى فى كتابه (حياتنا الجنسية) : إنه بقطع القلفة يتخلص المرء من المفرزات الدهنية ويتخلص من السيلان الشحمى المقزز للنفس ، ويحال دون التفسخ والإنتان ، كما أنه يحمى المولود

من خطر إنجاس الحشفة أثناء التمدد ، ويحمى الإنسان من الإصابة بالسرطان حيث ثبت أن السرطان كثير الحدوث فى الأشخاص المتضيقة قلفتهم ، ولكنه نادر جداً فى الشعوب التى توجب عليهم شرائعهم الختان .

كما يقول : إن الإسراع فى ختان الطفل يجنبه الإصابة بسلس البول الليلى ، كما أنه يخفف من كثرة استعمال العادة السرية للبالغين

ولكن ترك الختان للإناث لا يترتب عليه شىء من ذلك ، ومن ثم فهو مكرمة لها لا ترتقى إلى درجة السنة الواجبة للذكور .

٨ ــ الرضاعة :

توجه الشريعة الإسلامية إلى أن تقوم الأم بإرضاع وليدها لمدة عامين كاملين بعد الولادة لقوله تعالى : « **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده . . .** » . (البقرة ــ ٢٣٣)

وقد أوجبت هذه الآية الشريفة على الوالدين التفاهم والوئام ، والحب طوال مدة الرضاعة بصفة خاصة ، فهى تنفى كل سبب للشقاق بين الوالدين فى هذه الفترة الحرجة من حياة الطفل فألزمت المولود له بالنفقة على الأم وكسوتها دون من أو أذى ، ولكن بالمعروف ، أى بالحب والوئام والتفاهم ، وألزمت الأم ألا تكلف زوجها فى هذه السبيل إلا قدر طاقته ، فلا يحزن ولا يشعر بضيق ، بل تمر فترة

الرضاعة على رضى وحب بين الوالدين . ثم أكد ذلك المعنى بقطع كل سبب من أسباب إضرار أحد الوالدين بولده ، حتى ألا يستخدم الولد فى إلحاق أى أذى نفسى بأحد والديه ، فيبقى سعيداً هانئاً . لذلك جاء الأمر بمنع الضرر بسبب الولد أمراً مطلقاً جامعاً مانعاً لكل الأسباب والعلات ، سواء كان نوع الولد أو شكله أو حالته الصحية أو حضانته أو رعايته أو أى سبب آخر لا يدركه الحصر ، فالأمر بنفى الضرر ، حتى يبش الوالدان لمولودهما طول مدة الرضاعة ويبش كل منهما للآخر هو أمر جامع مانع لكل الأسباب .

ثم تستمر هذه الآية الكريمة فتخص سببين هامين من أسباب الخلاف الذى قد ينشأ بسبب المولود حتى تؤمن له قضاء مدة الرضاعة هانئة ، فتعالج حالة وفاة الأب قبل تمام الرضاعة بتكليف ورثته بالإنفاق على الأم وكسوتها بالمعروف تماماً كما كان الإلزام على الأب . وهذا حسم واضح لهذه القضية حتى لا يختلف فيها اثنان . أما القضية الثانية فهى حالة العجز عن إتمام الرضاعة حولين كاملين لأى سبب من الأسباب مثل صحة الأم ، أو عدم إقبال الولد على لبن أمه ، أو فراق الوالدين بالطلاق ، فقد ألزمت الآية الكريمة الوالدين بالتراضى فيما بينهما فى اتخاذ هذا القرار ، حتى لا يتعرض المولود لأى إزعاج ، أو يكون سبباً فيه ، فلو كان افتراق الوالدين بسبب الطلاق ، فلا يجوز أن يمتد الخلاف بين الزوجين إلى موضوع إرضاع الوليد ، بل يلزم أن يخضع الزوجان إلى التراضى فى هذا الموضوع وإن اختلفا فى أى موضوعات أخرى ، فإما أن تتم الأم الرضاعة رغم

الطلاق مع إلزام المولود له بدفع أجرها بالمعروف أى بالرضا والسرور والتقدير لهذا العمل الجليل من ناحية الأم ، أو أن تتم الرضاعة مرضعة أخرى على أن تأخذ هذه المرضعة أجرها أيضاً بالرضا والسرور ، والتقدير لهذا العمل الجليل من ناحية المرضعة ، وذلك كله حتى يستمتع الولد برضا وحب من أرضعته ، ويجد منها العناية التى يحتاجها وهو فى هذه السن التى يلزمه فيها العناية من قلب رؤوم .

أما إذا كانت صحة الأم أو عدم إقبال الوليد على لبنها هو سبب العجز عن إتمام الرضاعة مدة سنتين ، فلابد أيضاً من أن يتم التراضى بين الوالدين على اتخاذ هذا القرار وذلك بالتشاور مع الأطباء المختصين .

وقد حذرت الآية الكريمة من الاستسلام لأى خلاف بشأن الوليد فى هذه الفترة حرصاً على صحته النفسية والبدنية ، ولتبين ذلك اقرأ يا أختى بقية الآية الكريمة :

« . . . لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » . (البقرة — ٢٣٣)

والواضح من هذه الآية الكريمة أن التركيز بالوجوب هو أن ترضع الأم وليدها كما شرح هذا المعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرضعيه ولو بماء عينيك » ، وذلك لما للإرضاع من لبن الأم فوائد جسمية ونفسية عديدة للابن والأم على السواء أكدها كل من أطباء الأطفال وعلماء النفس حديثاً .

٩ - الحضانة :

تكون حضانة المولود للأم طوال مدة الحضانة ثم تؤول إلى الأب بعد أن يصبح الطفل قادراً على الاستغناء عن حنان أمه عليه ورعايتها له . وفى كل الحالات يجوز للقاضى أن يجعل الحضانة للأصلح من الوالدين إذا ما ظهر له مصلحة الولد فى ذلك .

فقد أتت امرأة إلى النبى صلى الله علية وسلم فقالت : « يارسول الله إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء ، وثديى له سقاء ، وحجرى له حواء ، وإن أباه طلقنى ، وأراد أن ينتزعه منى ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنت أحق به ما لم تنكحى » . (رواه أبو داود)

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » . (رواه الترمذى)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « أن النبى صلى الله عليه وسلم خير غلاماً بين أبيه وأمه فاختار أمه فأخذ بيدها فانطلقت به » رواه أصحاب السنن وهذا لفظ الترمذى .

ولذلك كان من حق القاضى فى حالة النزاع على حضانة الولد اختيار من هو أنفع للصبى وأقدر على إحسان تربيته والقيام برعايته . قال الحسن البصرى رضى الله عنه : سمعت شيخنا يقول : « تنازع أبوان صبياً عند بعض الحكام فخيره بينهما فاختار أباه ، فقالت أمه :

اسأله لأى شىء اختار أباه ؟ فسأله ، فقال الصبى : أمى تبعثنى إلى الكتاب كل يوم والفقيه يضربنى ، وأبى يتركنى ألعب مع الصبيان ، فقضى به للأم وقال : أنت أحق به » (زاد المعاد جزء ٤) .

فإذا لم تكن الأم اختار القاضى الأقرب رحماً لأنه أكثر حناناً وأجدر بأن يكون أحسن رعاية وقياماً بواجب الحضانة .

وقد قضى أبو بكر للجدة بحضانة ابن بنتها عندما تزوجت أمه وذلك عندما طلق عمر بن الخطاب زوجته الأنصارية بعد أن أنجب منها ولده عاصماً . ثم تزوجت بغيره ، فرآه فى الطريق وأخذه يضمه إليه ، فذهبت جدته لأمه تطلبه وتسترده إلى حضانتها واختلفا فيمن يكون صاحب الحق فى حضانته ورفعا الأمر إلى أبى بكر الصديق خليفة المسلمين ، فقضى بضمه إلى جدته وقال فى حيثيات الحكم : « ريحها ومسها ومسحها وريقها خير له من الشهد عندك يا عمر » .

وعن على رضى الله عنه قال : خرج زيد بن حارثة إلى مكة بابنة حمزة ، فقال جعفر : أنا آخذها أنا أحق بها وهى ابنة عمى وعندى خالتها ، وإنما الخالة أم ، وقال على : أنا أحق بها هى ابنة عمى وعندى ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى أحق بها ، وقال زيد : أنا أحق بها وهى ابنة أخى وإنما خرجت إليها وقدمت بها ، فقضى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجعفر رضى الله عنه وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما الخالة أم » .

(رواه أبو داود)

١٠ ـ تأديب الأولاد وتربيتهم على القيم والفضائل :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع » رواه الترمذى ، وفى رواية : « لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين ويقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه : « خير ما يورث الآباء الأبناء الأدب » . قال ابن مسعود رضى الله عنه : « كل مؤدب يحب أن يؤخذ بأدبه ، وإن أدب الله هو القرآن » من ذلك يتضح أن غرس القيم الدينية فى الصغر هو الأساس فى التربية الإسلامية . عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » ، وفى رواية : « فإن أولادكم هدية لكم » . (رواه ابن ماجه)

وعن الأسود بن سريع رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه » رواه البيهقى والطبرانى وغيرهما . ومن وسائل حسن تربية الأولاد عدة أمور منها :

(أ) الصدق فى التعامل مع الأولاد :

ذلك لأن القدوة هى أنجع الوسائل فى التربية ، والنصيحة تأتى بعكسها إذا لم يطبقها صاحبها :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : جاء رسول الله

صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال أعطك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمراً ، فقال : أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة » . (رواه أبو داود)

فليحذر الوالدان أن يسمع منهما مولودهما أي كذبة ولو صغيرة ، فإن ذلك يضيع كل نصائحهما له بالصدق ، فإذا طرق الباب طارق يطلب أحد الوالدين ، أو سأل عنهما سائل بالهاتف ، فكلفا الابن بالرد قائلا : إن أبي غير موجود أو أمي غير موجودة كذباً ، فإن ذلك السلوك يعلم الولد أن الكلام عن الفضائل منفصل عن تطبيقها فيفسد فساداً لا علاج له .

(ب) اصطحاب الأولاد إلى المساجد :

عن عبد الله بن شداد بن الهاد عن أبيه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتي العشي : الظهر أو العصر وهو حامل الحسن والحسين فتقدم النبي صلى الله عليه وسلم فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى ، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها . قال راوي الحديث : إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فرجعت في سجودي ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الناس : يا رسول الله سجدت بين ظهراني الصلاة سجدة قد أطلتها ، فظننا أنه قد حدث أمر وأنه يوحى إليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني ، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته » . (رواه أحمد والنسائي والحاكم)

وعن أبي قتادة رضى الله عنه قال : « بينما نحن جلوس فى المسجد خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل (أمامة) ابنة أبي العاص ابن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى صبية فحملها على عاتقه فصلى وهى على عاتقه يضعها إذا ركع ويعيدها على عاتقه إذا قام ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى على عاتقه حتى قضى صلاته يفعل بها ذلك » .

(ج) تدريب الأولاد على الصلاة :

يقول الله تعالى : **« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين »** .
(الطور – ٢١)

فإذا كان هذا هو شأن الذرية المؤمنة فى القرآن ، كان لزاماً على الوالدين الحرص على غرس الإيمان فى نفوس أبنائهم منذ الصغر ، وأول وسائل ذلك تعلم الصلاة ، فالصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » رواه أحمد والحاكم وأبو داود بإسناد حسن وعلى الوالدين أن يدربا أولادهما على التزام السنة المطهرة بتعليم الأدعية المأثورة عن رسول الله عند الوضوء وسماع الأذان وفى المشى إلى المسجد وفى دخوله وفى الخروج منه . وقد كان دعاؤه صلى الله عليه وسلم عند

الوضوء : « اللهم اغفر لى ذنبي ووسع لى فى دارى وبارك فى رزقى » .
(رواه النسائى وابن السنى)

أما بعد الوضوء فقد كان صلى الله عليه وسلم يقول : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين ، فمن قال ذلك فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء » . (رواه مسلم والترمذى)

وعند سماع الأذان يتعلم الولد أن يقول مثل ما يقول المؤذن تماماً إلا فى حى على الصلاة ، حى على الفلاح فيقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم يدعو بعد الأذان : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته » .
(رواه البخارى)

كما يعلم الولد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين » رواه الجماعة ، وذلك فيما عدا المسجد الحرام فتحيته الطواف بالكعبة ويكون الوالدان قدوة له فى ذلك كله ، لأن الاقتداء هو أنجع وسائل التعلم والتعود على العمل الصالح .

ولا يصح إهمال تعليم الأولاد هذه الفرائض وسننها حتى سن التكليف ، لأن الإسلام يوجب على الوالدين أن يدربا أولادهما على الصلاة ويأمراهم بها فى سن مبكرة ، فعن عبد الله بن عمرو بن شعيب عن جده رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم

أبناء عشر وفرقوا بينهم فى المضاجع» رواه أحمد والحاكم وأبو داود بإسناد حسن .

وحكمة تدريب الطفل من هذه السن المبكرة وتعويده على الصلاة ، فى جو أسرى يسارع كل فرد فيه إلى أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها هى معاونته على أن يجد الصلاة سلوكاً طبيعياً عندما يكبر فلا يشغله عنها شاغل من أمور الدنيا ، لأنه يكون قد أدرك قول الله تبارك وتعالى:
« إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » . (النساء – ١٠٣)

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بين المؤمن والكافر ترك الصلاة » .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : « على الآباء والأمهات أن يؤدبوا أولادهم ، ويعلموهم الطهارة والصلاة ، ويضربوهم على ذلك إذا غفلوا . قال أصحابنا : ويأمره الولى بحضور الصلوات فى جماعة كما يأمره بالسواك وسائر الوظائف الدينية ، ويعرفه تحريم الزنا ، واللواط ، والخمر ، والكذب وشبهها » . (الدين الخالص ج ٢) .

ويجب تعويد الأولاد على التسبيح فى ختام الصلاة ، وتعليمهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سبح لله فى دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين وقال تمام المائة : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » . (رواه مسلم)

كما يجب بعد تعويد الأولاد على صلاة الفرض تعليمهم السنة والنفل ، وقول بعض المتصوفين عنها : « هى نعمة للصالحين ، وقرة عين للوارثين ، ومعارج لأهل الإيمان ، ومشاهد لأهل الإحسان ، ونور لأهل اليقين ، وتمكين للمتقربين » .

(هـ) تدريب الأولاد على الصيام :

يجب تدريب الصغير الذى لم يبلغ الحلم سواء كان ذكراً أو كان أنثى على صيام شهر رمضان ما دام قادراً على صيامه . ولقد ثبت أن الربيع بنت معوذ الصحابية كانت تضع اللعب لطفلها وهو صائم لتلهيه بها إذا بكى على الطعام حتى يتم صومه .

(و) تعليم الأولاد القرآن والحديث الشريف :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتاب والسباحة وألا يرزقه إلا طيباً » . (رواه البيهقى)

فالقرآن هو قول الله الحكيم ، وشرعه المتين ، وهو خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وأتباعه الصالحين .

قال الله تعالى : « **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** » . (الجمعة ــ ٢)

كما يجب على الوالدين تشجيع أبنائهما كلما حفظوا آية من آيات القرآن الكريم أو حديثاً جديداً من أحاديث رسول الله صلى الله

عليه وسلم وذلك بالكلمة الطيبة والهدية المناسبة والدعاء له أن يفتح الله عليه ويغفر لوالديه .

فحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم متمم للقرآن الكريم ، وموضح للسنة المطهرة وحفظه متمم للفهم ومعين على حسن التطبيق .

(ز) تعليم الأولاد الذكر :

يجب على الوالدين تعليم الأبناء ذكر الله تبارك وتعالى فى كل حركة وفى كل سكنة فتعوده على التحية بتحية الإسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، والتهليل والتكبير كلما أعجبه أمر من الأمور بأن يقول : الله أكبر الله أكبر بدلا من التصفيق الذى هو من عادات الجاهلية ، ثم تعليمه الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند النوم والاستيقاظ والدخول إلى بيت الخلاء والخروج منه ، وعند تناول الطعام والانتهاء منه وعند الخروج من المنزل والدخول فيه ، ففى كل هذه المناسبات أدعية صحيحة مأثورة ، يمكن أن يدرب الوالدان أولادهما عليها وأن يوفروا مرجعاً لهم فى مكتبة الطفل(١) ، ليسهل عليه حفظها والتعود عليها ، فعند النوم يتعلم الولد قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى

---

(١) يراجع كتاب : ولماذا أكون مسلماً ؟ لعبد العظيم سبيع .. و : الاقتداء بالذكر والدعاء للشيخ محمد صوان .

منك إلا إليك . اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت فإن مت فى ليلتك فأنت على الفطرة ،واجعلها آخر ماتتكلم به » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا جاء أحدكم فراشه فلينفضه بصنفة ثوبه (طرف ثوبه) ثلاث مرات وليقل : باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » . (رواه الجماعة)

وعند الاستيقاظ من النوم يتعود الولد أن يقول ما كان يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور » . (رواه البخارى)

وعند دخول بيت الخلاء يتعلم الولد الحديث الشريف : « اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث » . (رواه البخارى)

وعند الخروج من بيت الخلاء يقول : « غفرانك » رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها « أو الحمد لله الذى أذاقنى لذته ، وأبقى فى قوته ، ودفع عنى أذاه » رواه الطبرانى وابن أنس عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما .

وعند تناول الطعام يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار » رواه ابن السنى ، فإن نسى ذلك فى أول الطعام فليذكر اسم الله تعالى وليقل : « باسم الله أوله وآخره » رواه أبو داود والترمذى ، وإذا انتهى من طعامه فيقول : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا من غير حول لنا ولا قوة » فإذا كان يأكل ضيفاً

عند أحد فإنه يقول : « أكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » رواه أبو داود ، فإن كان الطعام لبناً قال : « اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه » .

وعند الخروج من البيت يقول : « باسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإذا قالها يقال له : كفيت ووقيت وهديت وتنحي عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وعند دخول البيت يقول : « اللهم إنى أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم ليسلم على أهله » . (رواه أبو داود)

وعند لبس الثوب يقول : « اللهم إنى أسألك من خيره وخير ما هو له ، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له » رواه ابن السنى عن أبى سعيد الخدرى .

وإذا لبس ثوباً جديداً يقول : « الحمد لله الذى كسانى هذا الثوب ، ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة » رواه ابن السنى عن معاذ بن أنس .

وعند خلع الثوب يقول : « باسم الله لا إله إلا هو » وذلك لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستر ما بين أعين الجن وعورات بنى آدم أن يقول الرجل إذا أراد أن يطرح ثيابه : باسم الله لا إله إلا هو » رواه ابن السنى عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

ومن السنة لبس الثوب مبتدئاً باليمين ، وخلعه مبتدئاً باليسار .

(ح) التفريق بين الأولاد فى المضاجع :

يجب التفريق بين الأولاد (بنين وبنات) فى المضاجع منذ الصغر لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق ذكره . « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » (أى يفرق بين الذكر وأخيه الذكر ، وأخته الأنثى من باب أولى ، ويفرق بين الأختين كذلك وهذا هو المقصود بالتفريق) .

وحكمة التفريق بينهم فى المضاجع إذا بلغوا سن العاشرة هى أنهم يقتربون من البلوغ فى هذه السن ولابد من تعويدهم على الحياء ، فالبنت إذا نامت بعد هذه السن بعيداً عن أخيها تعودت على أن تحفظ بدنها حتى من شقيقها ، فيصبح الحجاب سهلا محبباً إلى نفسها بدلا من التبرج والسفور ، وكذلك مع أختها للبعد عن السحاق وما شابهه .

وكذلك الولد إذا نام فى هذه السن بعيداً عن أخته انطبعت فى نفسه غض البصر عن النساء منذ الصغر ، فكان ذلك أدعى لحفظه من الانحرافات التى يقع فيها الكثير من الشباب ، وكذلك عن أخيه للبعد عن اللواط .

(ط) تعليم الولد(١) أحكام المراهقة والبلوغ :

ومن المسئوليات الكبرى، التى أوجبها الإسلام على المربين من آباء وأمهات ومعلمين ومعلمات ووعاظ ودعاة ومرشدين تعليم الأولاد

---

(١) الذكر والأنثى : كل مولود ولد .

منذ أن يميزوا الأحكام الشرعية التى ترتبط بميولهم الغرزية ونضجهم الجنسى . والذكر والأنثى فى هذا التعليم سواء لكونهما مكلفين شرعاً ومسئولين عن عملهما أمام الله — عز وجل — فلابد من مسئوليتهما أمام المربين وأمام المجتمع . . . لذا وجب على المربى أن يصارح الصبى إذا بلغ سن المراهقة وهى السن التى تتراوح بين ١٢ — ١٥ سنة أن يعلمه إذا نزل منه منى (وهو ماء أبيض خاثر ينكسر منه الذكر عند خروجه وتشبه رائحته طلع النخل رطباً ورائحة البيض يابساً) ، فحينئذ أصبح بالغاً ومكلفاً شرعاً يجب عليه ما يجب على الرجال الكبار من مسئوليات وتكاليف ، ووجب على المربية أيضاً أن تصارح البنت إذا بلغت سن التاسعة فما فوقها وتذكرت احتلاماً ورأت الماء الرقيق الأصفر على ثوبها بعد الاستيقاظ أصبحت بالغة ومكلفة شرعاً يجب عليها ما يجب على النساء البالغات من مسئوليات وتكاليف وتجب مصارحتها أيضاً أنها إذا رأت دم الحيض أصبحت بالغة ومكلفة شرعاً .

فالإسلام يحمل الأبوين أولا وأخيراً مسئولية مصارحة الأولاد فى هذه الأمور الهامة حتى يكونوا على وعى وفهم فى كل ما يتصل بحياتهم الجنسية وميولهم الغرزية وكل ما يترتب على ذلك من واجبات دينية وتكاليف شرعية .

وكم سمعنا عن بنين بلغوا سن الشباب وهم على جنابة دائمة لكونهم يجهلون ما يترتب على الاحتلام والجنابة من أحكام ، وكم سمعنا عن بنات بقين سنين عديدة وهن غير طاهرات لكونهن لا يعلمن ماذا يترتب عن الجنابة والحيض من أحكام . . وربما يصلى الولد وتصلى

البنت وهما على جنابة أو فى حال عذر شرعى ويظنان أنهما يؤديان حق الله فى الطاعة والعبادة .

إذن فمن المسئول شرعاً عن مصارحة الأولاد جنسياً ، وتوعيتهم غرزياً قبل سن الاحتلام والإشراف على سن البلوغ ؟

لا شك أن الأبوين مسئولان بالدرجة الأولى ثم من يشرفون على تعليمهم وتربيتهم من المعلمين والمعلمات والمرشدين وإلا فسيكونون جهلاء فى الأحكام المتصلة بحق ربهم وحق أنفسهم وحق دينهم ، ومجتمعهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً !! .

والآن نضع بين – يدى الآباء والأمهات – أهم الأحكام الشرعية التى تتصل بالبلوغ ودخول سن الاحتلام ليتعلمها الابن قبل أن يبلغ مبلغ الرجال وتتعلمها البنت قبل أن تصل إلى مقام النساء .

وإليكم هذه الأحكام وهى ثابتة بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة(١) :

١ – الولد – سواء أكان ذكراً أم أنثى إذا ذكر احتلاماً ولم يجد على ثوبه بعد استيقاظه بللا لا يجب عليه الغسل .

٢ – الولد – ذكر أو أنثى – إذا رأى الماء على ثوبه ولم يذكر احتلاماً وجب عليه الغسل ويغسل ثوبه منه إن كان المنى رطباً – ويفركه إن كان يابساً .

---

(١) ولا غنى لأى أسرة مسلمة عن مكتبة إسلامية صغيرة فى الفقه مثل (الفقه على المذاهب الأربعة ، أو فقه السنة) لفضيلة الشيخ سيد سابق – والتفسير – كمختصر ابن كثير ، والسيرة للشيخ الغزالى والبوطى والسنة كرياض الصالحين .

٣ — نزول المنى — من الذكر و الأنثى — على سبيل الدفق ، والشهوة — بأى سبب كان — يوجب الغسل(١) وليس فى المذى والودى إلا الوضوء ولا يجب الغسل لما رواه أحمد وابن ماجه والترمذى عن على — رضى الله عنه — كنت رجلا مذاء فسألت النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : « فى المذى الوضوء ، وفى المنى الغسل » ، (والمذى والودى ما يخرج من الرجل بغير دفق أو شهوة بملاعبة أو تفكر . . . إلخ) .

٤ — انقطاع مدة الحيض يوجب الغسل على البنت .

٥ — ومن البدهى بعد تعليم الولد — ذكراً وأنثى — موجبات الغسل وجب أن يتعلم كيفيته وفرائضه وسننه — حتى لا يقع فى المحظور :

أما الفرائض : فغسل فمه وأنفه — بالمضمضة والاستنشاق — ثم غسل جميع بدنه — بما لا حرج فى غسله كالأذنين والسرة وفرج المرأة الظاهرى وما تحت الخاتم الضيق وما تحت الإبطين وإزالة أى دهون أو أصباغ للأظافر من أدوات الزينة — وإيصال الماء إلى أصول الشعر وتخليل اللحية والأصابع .

أما السنن والكيفية : فيبدأ بغسل يديه وفرجه ويزيل الجنابة ثم يتوضأ وضوءه للصلاة إلا رجليه فإنه يؤخرهما إلى آخر الغسل ، ثم

---

(١) ويجب على المربين أن يعملوا على إعلاء الغريزة عند الشباب وتحذيرهم من خطورة العادات السرية والأفلام الماجنة، والاستعفاف بالصوم والصلاة والقراءة الدينية .

يفيض الماء على شقه الأيمن ثم الأيسر ثم من الرأس إلى جميع البدن ثلاثاً ، ثم يغسل الرجلين فى مكان لا يجتمع فيه الماء .

والرجل إذا كان له ضفائر من الشعر وجب عليه حلها حتى يصل الماء إلى ثناياه . أما المرأة فلا يجب عليها حل ضفائرها ، بل يكفيها وصول الماء إلى أصول شعرها .

وإذا لم يجد الماء لبعده أو لآفة أو لم يجد ما يسخنه به فى البرد أو خاف عدواً أو عطشاً . . . إلخ فإنه يجوز له التيمم وهو ضربتان بباطن الكفين على أى طاهر من جنس الأرض كالرمل والحجر والتراب ضربة لمسح وجهه بعد نفخهما وتنفيض يديه بعد الضربة ، وضربة ليديه مع مرفقيه ويشترط فيه النية ويجزئ لرفع الحدثين الأصغر والأكبر (أى يحل محل الوضوء والغسل) .

٦ — ومن البدهى أن يتعلم الولد أيضاً ما يحرم عليه إذا كان فى حال جنابة حتى لا يقع فى المحرم . . . وإليك أهم هذه المحظورات : يحرم على الحائض الصوم والصلاة وتقضى الصوم ، ولا تقضى الصلاة ويحرم على الولد الجنب الصلاة فقط .

يحرم عليهما — دخول المسجد — إلا مروراً عابراً لقضاء حاجة ضرورية .

يحرم عليهما الطواف بالكعبة ؛ لأن الطواف صلاة إلا أنها يحل فيها الكلام .

الاستئذان داخل البيت :

يجب تعويد الأطفال ألا يدخلوا على والديهم ، قبل الاستئذان بالدخول فى ثلاثة أوقات محدودة هى قبل صلاة الفجر ووقت الظهير وبعد صلاة العشاء لقوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيت اوالله عليم حكيم** » .

(النور — ٥٨)

أما إذا بلغ الأطفال الحلم فإنهم يستأذنون فى الدخول كما يستأذن المحارم وذلك لقوله تعالى : « **وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم** » .

(النور — ٥٩)

(ك) تدريب الأولاد على الجهاد فى سبيل الله :

يجب تدريب الأولاد على الجهاد، وتحبيبهم فيه ، وتشجيعهم عليه، فهو فريضة من فرائض الإسلام ، لا تعز الأمة الإسلامية إلا إذا فشا حب هذه الفريضة فى أبنائها .

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : « رأيت أخى عميراً يتوارى يوم بدر ، فقلت : مالك يا أخى ؟ فقال : أخاف أن يرانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرنى فيردنى ، وأنا أحب الخروج

لعل الله أن يرزقني الشهادة ، فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرده فبكى ، فأجازه . قال سعد : فكنت أعقد عليه حمائل سيفه من صغره ، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة » أخرجه البزار — حياة الصحابة .

وليذكر الآباء والأبناء قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

(التوبة — ١١١)

* * *



إذا كان هذا الكتاب قد قصد إلى إيضاح قمة السعادة الزوجية فى الإسلام فإن من فضل الله أن تكون خاتمته إيضاحاً لقمة السعادة فى الحياة الدنيا ، وهى السير فى الطريق الأكيد إلى الجنة ، السير فى الطريق إلى الشهادة فى سبيل الله ، وليكن مسك الختام فى قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم : **« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .** (آل عمران ١٦٩ – ١٧١)

والحمد لله رب العالمين .

* * *

مراجع الكتاب

١ – فقه السنة – السيد سابق .

٢ – الفتح الربانى – أحمد عبد الرحمن البنا .

٣ – الطب الشرعى فى خدمة الأمن والعدالة – دكتور صلاح مكارم وآخرين .

٤ – المرأة المسلمة – صلاح عبد الغنى محمد .

٥ – تحفة العريس والعروس فى ضوء الإسلام – محمد على قطب .

٦ – تحفة العروس أو الزواج الإسلامى السعيد – محمود المهدى الاستامبولى .

٧ – ولماذا أكون مسلماً – عبد العظيم سبيع .

٨ – تربية الأولاد فى الإسلام – عبد الله ناصح علوان .

* * *

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

دار العلوم للطباعة
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى « قصر العينى »
ت ، ٣٥٥١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب ٤٩١٠ ــ ١٩٨٥

الترقيم الدولى ١١٤ ــ ١٤٢ ــ ٩٧٧

هذا الكتاب ....

إن الثقافة الجنسية أمر لازم لكل ذكر وأنثى من البشر. فالغريزة الجنسية طاقة واقعية، موجودة فى كل الناس، وعليهم أن يتعلموا أصح الطرق لتوجيهها، فيما ينفعهم ويسعدهم، وأن يتجنبوا الأخطار والأضرار الجسيمة التى يمكن أن تنشأ عن سوء استعمالها.

بهذه النظرة الواقعية، تكون الثقافة الجنسية وسيلة بناء فى المجتمع، لا وسيلة هدم، والكتاب الذى بين أيدينا، يوضح أن الشريعة الإسلامية السمحاء تركت فى المسلمين كل عناصر هذه الثقافة بأدق تفاصيلها، مع توجيهها إلى ما ينفع الناس، ولا يضرهم.

وكان استدلال المؤلف بالآية القرآنية أو الحديث الشريف أو أقوال الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو اجتهاد الفقهاء فى هذه الأمة، بالغ الدلالة على شمول هذا التراث الضخم المبارك. لكل ما تحتاج إليه البشرية حتى فى أخص خصائصها.

وإذا منعنا الحياء أن نعلم الأجيال هذه الحقائق من منابعها الشرعية الصحيحة فإنه لا توجد قوة على سطح الأرض تمنعهم أن يتعلموها من مصادر ضالة مضلة، تتجر بالأعراض، وتروج للرذيلة، خاصة فى هذا الزمان الذى اختلطت فيه مظاهر التقدم المادى بالانحلال الأخلاقى.

وسوف يجد القراء بين دفتى هذا الكتاب ما يثبت إيمانهم [illegible] الحميد الذى خلق فأبدع، وعلم الإنسان بآيات محكمات أنه مست[illegible] والإبداع حتى تقوم الساعة مع تركيز على آية الزواج وحكمته [illegible] وواجبات الزوجين كل منهما نحو الآخر، وواجباتهما نحو [illegible] بما يحقق حياة زوجية مليئة بالبهجة والهناءة، مزدانة بالتقى والإ[illegible]

والله ندعو أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يجزى [illegible] وعن المسلمين خير الجزاء.



دار الا[illegible]